بيدرو ميرال

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

ليلة مع صابرينا

ترجمة: أبو بكر العيادي

تقديم: أحمد العلي

رواية

مسكيلياني

بيدرو ميرال

ليلة مع صابرينا

ترجمة: أبو بكر العيادي

تقديم: أحمد العلي

ليلة مع صابرينا

المؤلّف: بيدرو ميرال
عنوان الكتاب: ليلة مع صابرينا
ترجمة: أبو بكر العيادي
مراجعة: رمزي بن رحومة
تقديم: أحمد العلي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

.....

ر.د.م.ك: 978-9938-833-91-1
الطبعة الأولى: 2017

عنوان الكتاب الأصلي:
Una Noche Con Sabrina Love
© Pedro Mairal, 1998

.....

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

18+

(1)

كُنّ تسع نساء يجلسن متجاورات على طقم مقوّس من الأرائك المتينة الصّنع. صديقات والدتي وقريباتها. لم يكُن وجودهن باعثًا على أيّ تحذير أو موجبًا لأيّ تصرف غير معتادٍ. كان صدري باردًا وأنا أنزل الدرج المُطلّ على الصّالة وقد انحسرت أغطية رؤوسهن عن خصلات تتفاوت ألوانها (الدرجات المحصورة بين الأسود والكستنائي)، وعباءاتهن معلّقة على أكتافهنّ، ما يعني أنهنّ لم يتخلّصن بعد من المجاملات والادّعاءات وإعلان قوائم الأخبار المُعدّة سلفًا لمثل هذه اللقاءات. سائرًا في الطفولة كنتُ، على عشبها البريء، حين تعالى صوت والدتي من بينهنّ طالباً منّي أن أقترب للسّلام عليهن. أما صوت تلك المرأة الثالثة فما زال يتردّد داخلي حتى الآن، أميّزه من بين أصوات البشر في المدن والقرى والجزر البعيدة: «هذه آخر مرّة، لن أسمح لك لاحقًا بتقبيل خدّي أو مصافحتي، أُنظر إلى نفسك، لقد كبرت!». لم أكد أسلّم على المرأة التاسعة حتى انتبهت إلى أنني ما عُدت أعرف كيف أمشي، ولا كيف أتكلّم، ما عُدت أُحسن تحريك جسدي؛ صرت أخطو كأنني على وشك السقوط من فرط استغراقي في التفكير بالطريقة الصحيحة

للسّير والمسافة الواجب إبقاؤُها بين القدمين أفقيًّا وسرعتهما الموحية بالثقة. هل أحرّك ذراعيّ مثل عسكريّ في مسيرة الجنود، أم أثبّتهما إليّ وكأنّني أخفي شيئًا تحت إبطي؟ صوتي يخرج من أسفل الحنجرة بثقلٍ واضح كمن يرفع مرساة سفينة، وجبهتي مرعى للبثور الصغيرة. هذا كثير، كثير على طفل أن يعي بأنه أصبح مراهقًا لمجرّد أن امرأةً أيقظته ورسمت له الحدود. ارتفع جدارٌ ضخمٌ بين عالمين: مجلسٌ للرجال، ومجلسٌ للنساء. بابٌ لي وبابٌ لهن، جسدٌ لي، وجسدٌ لهن. بعدها، صارت أغطية الرؤوس ترتفع لرؤيتي مثل غربانٍ فزعة، الأكفّ تندسّ بيضاء في مخابئها مخافة عَين الغلام. ابتعدتُ عن عباءة أمّي، مفتاحي الذي كان يُشرع لي مجالس الأعياد المكتظّة بالفتيات، وغُرف النوم الجماعيّة في ليالي الرحلات، وقاعات الأعراس الفاتنة.

(2)

إنّه وقت الجسد الفتيّ، الجسد الشّبق والعابق بالخصوبة. وقتٌ تبدأ فيه مفاهيم الخصوصية بالتشكّل فتصير أمرًا مُلحًا بل أحد المطالب الأساسية للحياة «هذه شؤوني الخاصّة. هذه حياتي. تلك غرفتي وحدي. هذا دُرْج أسراري». كل ذاك وغيره هو محاولة للتستُّر على الجسد الذي راح يشتاق إلى الفتيات حتى صار يراهن في الأحلام دون رؤوس.. مجرّد أجسادٍ عارية مكتملة الدوائر والرطوبة في سريرٍ واسع أو في غرفةٍ من غُرف المدرسة وقت الفسحة، أو حتى في زاوية مُظلمة من شارع ما. بعدها يبدأ الفتى في السّعي إلى التعرّف

على عـالم العُري الحقيقي. إن كانت مجلـة بلاي-بوي الورقيّة ممنوعة في بـلاده، فإنـه يُهرّبهـا من دولة مجـاورة. وإن كانت المواقـع الإباحية الإلكترونية محجوبة، فسـوف يجد منفذًا رقميًّا للولوج إليها. سيظهر في المدرسـة مراهـقٌ يطبع الصّور ويأتي بهـا إلى الفصل، ويأخذ مقابل كل نظـرةٍ بعض المـال. بعدها تبدأ الدعوات الجماعيـة بين الأصدقاء لمشـاهدة فيلـم بورنو حصل عليه أحدهم من أخيـه الكبير. ثُمّ ينتقل الأمـر إلى التعـرّف صدفةً عـلى فتاة عـبر برامج المحادثـة، وتبدأ أول تجربـة خاطفـة للجنس بالكلـمات. يرتقي الأمر بعدهـا إلى المكالمات الصوتيّـة، ثم الصور والفيديو. بعدها، في أغلب الأحيان، ينتهي كل شيء عند هذا الحد. ففي مجتمعاتنا العربيّة، وفي الخليج على الأخص، تجـاوز هـذا الحد يُعتـبر جريمة على كافة المسـتويات، تنتهـي مفاهيم الخصوصيـة ويصبح الأمـر دينيًّا واجتماعيًّا وقَبَليًّـا ومناطقيًّا. يقتلون الورد في تفتحه. يُقيّدون التجربة ويمنعون عن الجسد الماعون.

(3)

يختـارُ دانيال الأرجنتيني، البِكْر، بطل روايتنـا المحتفى بها هنا، قـدَرًا آخـر، في بلـدٍ حُـرّ تمامًـا في التعاطي مـع الأمور الجنسـيّة حتى صـارت مجـالًا للعمل وكسـب الـرزق (في قائمة أكثر الأعـمال ربحًا في العـالم، تأتي الدعارة في المرتبة الثانية بعد تجارة الأسـلحة). يتعطل العـالم مـن حوله كـما تعطّلـت دواخله عندما عشـق «البورن سـتار» صابرينا، التي تقدّم برنامجها الشهير (الحُبّ مع صابرينا) أو (صابرينا

لـوف) عـلى قنـاة مشـفّرة في التلفزيون. وبضربـة حظ، يفـوز دانيال في برنامجهـا بفرصـة لقضاء ليلةٍ معهـا، في الوقت ذاتـه الذي يتعطّل خلاله المصنع الذي يعمل فيه لعدّة أيام بسـبب الأمطار التي أغرقت بلدتـه بالفيضانـات. هكذا يخرج عن زمنه الرّتيب في رحلة يكتشـف فيها جسـده لأيّـام معدودات بعيدًا عن البيـت والأخ الكبير ورئيس العمـل. يختـبر دانيـال نضجـه في الطريـق المحفـوف بالمخاطـر نحو صوفيـا؛ يضطر إلى السّـير على أقدامـه طويلًا، والانتظـار في محطات البنزين، والسـباحة عاريًا في نهر جارف، وتَلقّي اللكمات، والتعرض إلى السرقـة، والضياع، واقـتراض المال، وكل ما لا يخطـر على البال، فقط للوصول إلى صوفيا.

إنها روايةٌ عن الأنبوب الزمني الذي ينزلق فيه جسـد الفتى نحو بُعـدٍ آخـر من العالم فيه يتحـوّل إلى رجُل، تترُك الحيـاة عليه علاماتها وندوبها. فجسـده الـذي قاده إلى الجهـة الأخرى من الشاشـة، تلك الجهـة الغامضـة على النـاس أجمعـين، قد أنضـج ذهنه ووهبـه رؤية العالم الكامن خلف أجهزة الرسـيفر، حيثُ يُشكّل رغباته وأحلامه؛ يوجد أناسٌ هناك قد سـحنتهم الحياة سـحنًا فصـارت المتعة والحُب استعراضًا تمثيليًّا أمام الكاميرات وحسب، ما إن يُعلِن المخرج انتهاء التصويـر حتى يغرق عالمهـم في رمادٍ كثيف ويعلـو الزّيف والادّعاء مثـل فضيحةٍ ناصعة. وترى الفراغ، تـراه في أعينهم مثل بابٍ مفتوحٍ عـلى الأبديّة. أمّا المُشـاهد الذي يَخفى عليه هذا المشـهد الأخير، فإنه يبقـى في غفتلـه الكبـيرة، تلك الغفلـة التي رفض دانيـال أن يحيى في إهابهـا. لقد اختلط دمعه بدمه وبمياه الأمطـار والفيضانات والعرق

والمنـيّ حتى قبـض على الواقـع: الالتحام بفتـاة هو فرصـة للحُبّ، هو الحقيقة وسـبيل النضج. سـتبقى دون ذلك غِرًّا مـدى الدّهر. إنّ الشاشات تدّعي ألوانها.. لا تُصدّقها أبدًا، ولا تشِخ أمامها.

أحمـد العلي

نيويورك - أمريكا

23 ديسمبر 2015

(1)

في انتظار استعراض صبرينا لاف، كان دانيال يقفز بين القنوات الستين للكبل المسروق. مقدّم برامج، عمق البحر، زرافات، تلاحق سيارات، محاورة نسوة فنزويليات، تدفق حمم، أوتوستر ادات إسبانية عند مطلع الفجر، رجل بوجه مرعوب، يدان تزينان التورتة. لننتقل الآ... لا يمكن أبدا... لا يصدّق ومُذْهِـ...[1] ...رِثة الأخيـ... العجوز عندئذ[2]... كأسٌ رائـ... سهلُ الْـ... توقفي يا لوريتا. حكاية واحدة بسرعة فائقة تبدو فيها شمس خارطة القمر الصناعي تضيء شريطا وثائقيا عن كينيا حيث الأسود تتسافد وهي تكشر عن أنيابها في الوضعية نفسها لزوجين من أمريكا الشمالية على القناة البورنوغرافية، فهما أيضا يكشران عن أسنانهما ويغمضان عيونهما كأنهما يحاولان أن ينسيا صورة شريط الأخبار حيث عراقيون يصوبون رشاشاتهم نحو حارس مرمى أرجنتيني راكع على ركبتين رافعا يديه وقد أدرك أنهم سيرمونه بالرصاص فراح يسترجع ذكرياته كلها في ومضة خاطفة بدءا بالصور المتحركة زمن طفولته. حكاية بلا نهاية كان دانيال يستعجلها ليقلص الزمن الذي يفصله

---

(1) بالإنجليزية في الأصل: .most incredible and amaz... (amazing)

(2) بالإيطالية في الأصل: allora il vecchio

عن برنامج صبرينا لاف. كان لا يتوقف إلا عند قبلة زوجين بدآ يخلعان ثيابهما في عتمة تميل إلى الزرقة لفيلم من الدرجة الثانية وهو يرجو ألا تنحط الصورة بعدُ على المدخنة الموقَدة، التي توثق من الغد على واجهة عمارة، حينما تجهد الممثلة في جعل اللحاف لا ينحدر عن مستوى ترقوتيها.

كانت أضواء التلفزيون تصغّر الغرفة وتكبّرها جاعلة النساء العاريات في ملصقات مثبتة بدبابيس على الجدار يقطّبن وجوههن بشكل غريب، ملصقات بليت بفعل رطوبة الأمطار التي فاقمت أودية المنطقة الساحلية حتى فاضت على الطريق الرابطة بين كوروغوازو وبوينس آيرس.

بدت حرارة الليل أشبه بأنفاس حيوان ضخم، أما دانيال فكان جالسا على السرير، يسحق البعوض ويغير القنوات بالضغط على أزرار حلاّل الشيفرة بواسطة إبرة لزرد الصوف. وعندما يتوقف لمشاهدة برنامج، يحركه في الهواء على إيقاع منوّم دون أن تفارق عيناه الشاشة. وباليد الأخرى كان يمسك ورقة تحمل رقم 2756. وبين الحين والحين ينتقل إلى قناة البورنو. ها أن امرأتان تلحسان بعضهما بعضا على حافة مسبح بغير انقطاع. لقد شاهد هذا الفيلم من قبل. لم يبق غير جِماعين اثنين تتخللهما مشاهد حوارية لا غنى عنها، ثم الجينيريك، وأخيرا استعراض صبرينا لاف.

غادر الغرفة وأغلق الباب بمفتاح يحتفظ به في جيبه. عبَر الفناء في الظلام، بمشيته المراهقة المهتزة، وكأن هيكله العظمي يتجاوزه بقامتين. من خلال الظل الحامي، يجيء نباح كلاب الأجوار. دلف

إلى المطبخ وفتح الثلاجة. تسمّر كي يحس برودتها، وهو يركز نظره على القناني وسواها. لم يُخرج غير قنينة ماء، ثم أغلق الباب. تناهى إلى سمعه خطو جدته الواهن، وصوت اصطدام المشاية مرتين.

«هذا أنت يا دانييليتو؟

- نعم يا جدتي.

- في ما قيامُك؟

- كنت عطشان.

رآها تدنو في العتمة، والجسد منها مهزوم، والذراعان هزيلتان ولكن لا يزال فيهما من القوة ما يكفي لتحريك المشاية.

- تريد أن أحضر لك شيئا؟

- لا يا جدتي. عليّ أن أنام، قال، ثم شرب الماء بجرعات ملء الفم.

- تعمل غدا؟

- نعم، بعد ساعتين، في الساعة الخامسة.

- ولكن يا دانيال، انظر كيف تؤخر نومك. أنت لا تنام مطلقاً. أمك كانت تقول إنك وُلدت...

-... مفتّوح العينين.

- بالضبط، مفتّوح العينين. حاول أن تنام قليلا»، - قالت وهي تدفع ذؤابة شعره جانبا وتداعب خده.

احتمل المداعبة وقال: «إلى الغد»، ثم خرج إلى الفناء بخطى حثيثة.

«دانييليتو، أختك قادمة غدا لترتيب البيت، لا تغلق بابك بالمفتاح».

دخل دانيال غرفته وسحب الرتاج.

جلس على حافة السرير. كان استعراض صبرينا لاف قد بدأ. على وقع موسيقى متوقدّة، لاح جينيريك صور متواترة يبرزها في وضعيات مختلفة وأزياء مجعولة خصيصا لتحقيق ألوان من النزوات الإباحية. شقراء، فارعة القوام، لها شعر اسكندنافية تحرص على دوامه، وشفتان حمراوان تنبوان عن الوجه، وثديان سخيّان، ووركان عريضان يمنحانها، حين تستلقي على الفراش، هيئة فرس تتمرغ في شبق تحت الشمس. اليوم تقدم برنامجها من حوض جاكوزي. تدعو الممثل الأكثر وسامة في الوقت الحاضر إلى الغطس بجانبها وإجراء حوار تتوصّل خلاله إلى إحراجه بشتى وسائل الاستفزاز، فتقترح ركنا عجيبا حول محلات بيع كل مستلزمات الجنس، وآراء أطباء متخصصين في علمه، ولمحة عن أدوارها السينمائية، وترد على بريد العشاق.

«والآن، صغاري الأعزاء، تقول وهي تضغط ثديا على ثدي، هيّا بنا إلى ما تترقبونه كلكم: القرعة، لنعرف مع من سوف أقضي ليلةً هنا، في فندق كيوبس، في لحظة انفراد حارقة». في تلك اللحظة، كانت على أربع، في رباط جوارب ومشدّ أسود، فوق كوم من أوراق تفيض على حوض أسماك فارغ من البلاستيك. «يا لهذا العدد الوافر من الرجال، تقول وهي تخلط الأوراق، ولكن المنتج قال لي إن ثَمّ نساءً أيضا، ما يعني أنه يمكن أن تحصل مفاجآت»، ففي الأثناء كان دانيال ينظر إلى رقمه.

أثناء الليل، ثبّت وصلة عن طريق كبل متحد المحور وسحبها حتى غرفته. كان لا بد له من تلفزيون. أن يأخذ جهاز جدته معناه حرمانها من وسيلة ترفيهها الوحيدة. ذهب إلى السمين كربوني المعروف بتخزين بضائع مشبوهة. في ناحية خارج المدينة، داخل خلوة مرصوصة رصّا بحطام سيارات وآلات منزلية قديمة، باعه مقابل نصف أجرته تلفزيونا ذا أنبوب مهبطي ضعيف وحلاّل شيفرات.

«تضغط قليلا هنا، تشدّ إليه سلكين صغيرين أو ثلاثة فيصير ممتازا. الحلاّل جديد تقريبا. أما آلة التحكم عن بعد، ففي المرة القادمة».

- بهذا يمكن مشاهدة كل القنوات؟ سأل دانيال، والتلفزيون على ذراعيه.

- «نعم، حتى البورنو»، -ردّ السمين كربوني-. تخلّص منه وأغلق باب الصفيح. وتحت الشمس، على الأرض المتربة، سمعه دانيال يزعق بصوت ساخر: «سوف تصبح أعمى، يا راعم !».

ولكنه كان يعرف أن ذلك ليس صحيحًا. بعد الظهر، أصلح التلفزيون، فكّك حلاّل الشيفرات ليعرف كيف يشتغل، ثم أعاد تركيبه. في تلك الليلة، بعد أن فتح التلفزيون، وبعد زوال لحظة الانبهار بصور قناة X، أدرك أن زمن المجلات التي كان يشتريها خفية من كشك محطة الحافلات قد ولّى، وأن صور النساء التي كانت المخيلة تجهد في جعلها تتحرك قد انتهى، وأن تيارا إيروسيّا متواصلا سوف يجيئه الآن بتلك الأجساد بكل وضعياتها ولهاثها، وأسلم نفسه في فرح غامر إلى استمناء صيفي، أبعد من أن يجعله أعمى، كشف له

لأول مرة عن أسرار الوجود الدفينة.

عندما شاهد برنامج صبرينا لاف وعلم بالمسابقة، طلب الرقم 0600 الذي يظهر على الشاشة، وبعد أن ترك اسمه وعنوانه، أبلغه صوتٌ مسجَّلٌ بالرقم الذي يمسكه الآن بيد مرتعشة. كان ينظر إلى صبرينا وهي تخلط الأوراق بيديها قائلة: «آسفة لعدم إمتاع الجميع يا أحبتي. سأطلب الآن من مساعديّ العزيزين أن يتفضلا برمي هذه الوريقات في الهواء، والوريقة التي تقع في تقويرة ثوبي ستكون هي الفائزة». ساعدها رجلان مفتولا العضل على النهوض وبدأت قبضات مليئة بالورق تحلّق في الفضاء وتنهمر عليها انهيار المطر، وهي تحرك كتفيها وتنفخ صدرها قليلا حتى وقعت أخيرا وريقة على رافعة نهديها ذات الدانتيلا السوداء. خفضت عينيها نحو موقع الورقة، نظرت إلى الكاميرا وتناولتها بين يديها قائلة: «لنر من هو هذا الخبيث... حسنا. في غرفة بفندق كيوبس، مدفوعة الأجر والمصاريف، سنكون وحيدين، وسوف نعيش ليلة لا تنسى، أنا صبرينا لاف، أكبر نجمة بورنو أرجنتينية و...» ألقى دانيال نظرة على رقمه: 2756. «أي أي أي، يا كنزي ! لن أذكر اسمه حتى لا أحرجه إن كانت له زوجة غيور، ولكنه رجل وله رقم 2756». فزّ دانيال قائما وظن أنه أساء السمع. حيّت صبرينا لاف الحدث بالرقص على نغم ساكسو حزين، ثم قالت: «تذكروا أن الفائز أمامه أربع وعشرون ساعة لكي يتصل بفريق الإنتاج. نحن لا نتصل هاتفيا لأن الفائز ربما يفضل أن يبقى ذلك سرّا بيني وبينه». وضعت الورقة بين نهديها وأنهت الحصة كالعادة بالتعرّي.

ظل دانيال جامدا، ويداه على رأسه. ثم نقل نظره في الغرفه وتبسم بعصبية. كان جينيريك الختام لاستعراض صبرينا لاف يمر على الشاشة. أطفأ التلفزيون. استلقى على السرير بثيابه وغاص تحت اللحف. لم يكن قادرا على تصديق ذلك. ظل هناك، صامتا، مذعورا. وكان ليل الصيف ينقشع تحت صياح مبهم لأحد الديكة.

(2)

كان في حجم الدجاجات التي يشق طريقه بينها، ويدفعها وسط قوقأة تصم أذنيه وضربات أجنحة يتلقاها من تلك الحيوانات الضخمة ذات الأعراف والأرجل الحرشفية، وُحوش من عصر ما قبل التاريخ ببراثن ومنقار صلب قاتل. كان يبحث عن الباب ولكنه، وهو سجين الريش والأعناق الوردية، لم يستطع بلوغه. كلهم كانوا يحاولون الفرار أمام خطر غامض. أحس أنهم يختارونه هو، من بين العدد الهائل من الدجاج، اختاروه هو تحديدا، وها أن يدا تمتد إليه الآن... أفاق من النوم. وَجدَ النهار قد طلع. نط من السرير دون أن يغير ملابسه. غادر الغرفة، وأغلقها بالمفتاح، ثم قوّم في الفناء دراجته. مرّ بمنشر الغسيل وخرج إلى الشارع معتمرا كاسكيت برتقالية ذات واقية للوجه كتب عليها «زايشو». أدار الدواسة ومضى بسرعة بين البيوت الواطئة التي أضاءتها الشمس لتوها، فكان يُصادف في طريقه بين الحين والحين درّاجا آخر ماضيا هو أيضا إلى عمله. ترك الدراجة وجرى إلى معمل تجهيز اللحوم.

«تأخرت يا مونتيرو، قال باريني، رئيس العمال.

– كنت أظن أن الطريق لا تزال مقطوعة وألا وجود لشاحنات،

قال معتذرا.

- بالضبط، ولكن ينبغي، رغم ذلك، أن تصل في الموعد، حتى وإن لم تأت أي شاحنة كامل النهار. فهمت؟ تثبت قليلا من هذه الأرقام».

تذكر دانيال رقم 2756 بين نهدي صبرينا لاف. لقد فاز. وجه باتيني، الدجاج الحي والمجمد، دخول الشاحنات وخروجها، الطريق المقطوعة... فجأة ما عاد كل ذلك يهمّه. رغم أن الطريق المقطوعة، أمر ينبغي أن يحسب حسابه. لا يعرف كيف سيغادر كوروغوازو، ولا متى يحين الموعد. كان بحاجة إلى نقود للسفر والإقامة في بوينس آيرس... جاءه أمر بتفقد مقاييس الحرارة في الحاضنات المحيطة بالمعمل. كانت فكرة قضاء ليلة مع صبرينا لاف تجعل كل نشاط لا يمت إلى تلك الغاية بصلة غير واقعي تقريبا. راح ينظر إلى نفسه وهو يفتح أبواب العنابر، يسجل درجات الحرارة على السبورة، يمشي وسط الكتاكيت بميدعته القذرة وواقية وجهه، وهو يركلها برجله ويشتمها حين تتجمع حوله وتمنعه من المرور. كل تلك الحركات بدت له غير ذات معنى. كانت أشبه برؤية شخص ينظف متنَ سفينةٍ تغرق. كذلك قضى صبيحته، غريبا عن حركاته، ينظر إلى نفسه مؤديا أعمالا عبثية كان باريني يستنبطها كلما أنهى سابقاتها، إذ لا يمكن أن يُستأنف أي عمل حقيقي قبل أن تنسحب المياه وتصبح الشاحنات قادرة على المرور.

عند الزوال، اختفى باريني، فاغتنم دانيال فرصة غيابه ليجري مكالمة من المكتب الخالي إلى شركة إنتاج استعراض صبرينا لاف في

بوينس آيرس. كان الخط مشغولا، ولم يجد متسعا من الوقت ليكرر المحاولة، لأن باريني عاد ليقول له:

«مونتيرو، لا تأت غدا. ما دام مستوى المياه لا ينزل، فلا شيء يمكن أن نفعله هنا.

- سوف تُدفع لنا أجورنا؟ - سأل دانيال.

- لا، كل شيء معطّل.

- أرجو المعذرة، ولكني محتاج إلى هذا المال.

- ومن ليس بحاجة إليه؟

- ولكن...

- السبب ضرورة قاهرة، قال باريني. لا فائدة من النقاش. إذا أردت أن تلقي بهذا على عاتق طرف ما، فلتجعله على حساب الإهمال الأرجنتيني. لو بنوا الطريق في العلو الذي مدّ فيه الإنجليز سكك الحديد، لما وصلنا إلى هذا. ولكن لا شك أنهم قالوا: «ولكن بلى، لنعبّد وكفى، على أية حال الماء لن يصل أبدا إلى هذا الحدّ»، وهكذا نقف اليوم على أطراف أصابعنا لكي نتنفس. في النهاية، من الذي يهمه الدجاج في هذا البلد؛ أما الكرنفال... إذا تواصل الفيضان حتى الكرنفال، فإن باستطاعتهم أن يتفاوضوا مع سكان الكواكب الأخرى كي يأتوا لضخ الماء. يا لها من فوضى، هذه البلاد ! غدا إذن يا مونتيرو، لا تأت. فهمت؟».

خرج باريني من جديد، فدخل دانيال إلى المكتب نفسه وطلب

الرقم ذاته. نظر عبر النافذة وهو منتبه إلى الرنين. في الأرض البراح المجاورة حصان ناصع، مربوط بسلسلة إلى شجرة كاسيا استوائية، وهو يرعى بهدوء وينش الذباب بذيله. ملابس داخلية نسائية بيضاء تجف تحت الشمس. لم يندّ تقريبا أي رنين، قبل أن يأخذه على حين غرة صوت ذكوري فيه بحة:

- الإنتاج، في الاستماع.

- أوه... نعم، أوه... أنا الذي فاز في عملية القرعة.

- اسمك؟

- دانيال مونتيرو.

- أخيرا! قال الصوت المبحوح. أنت لا تتصور عدد الذين طلبوا ليقولوا إنهم فازوا. حسنا، يا مونتيرو، أعد عليّ رقم بطاقة هويتك وسيكون ذلك جيدا.

أعطاه دانيال الرقم.

«صحيح. صبرينا في انتظارك يوم السبت القادم على الساعة الحادية عشرة ليلا. أنت راشد على الأقل؟ لا أريد أن تحصل لي مشاكل.

- عمري ثمانية عشر عاما.

- وأبواك لن يحدثا إزعاجات؟

- لا أبوين لي. لقد ماتا.

- آه، هذا أفضل، هذا أفضل. حسنا، تعرف أين يوجد فندق كيوبس؟

- لا.

- 2000، نهج أزكويناغا، بوينس آيرس. جئ معك ببطاقة هويتك. السبت القادم، الساعة الحادية عشرة. هذا مناسب؟

- مناسب.

- حسنا، صبرينا سوف تنتظرك في الجناح 9. على فكرة، في غاية النظافة، هه، يا فتى؟

- نعم، نعم.

- حسنا. إلى اللقاء.

وأقفل الخط.

اليوم هو الخميس. ولكي يكون يوم السبت في بوينس آيرس، لا بدّ من إيجاد المال ومغادرة كوروغوازو.

خلع منديله وركب دراجته باتجاه وسط المدينة. كانت الشمس تنصلت بشكل عمودي والهواء يصبح خانقا، والمتاجر قد بدأت تنزل ستائرها استعدادا لما بعد الظهيرة. أدار الدواستين ببطء، وذراعاه متشابكتان، دون إمساك المقود، وهو يعيد «السبت، الساعة الحادية عشرة ليلا. 2000، نهج أزكويناغا. الجناح 9». كان مسرورا أن يتم ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلا. تساءل هل سيبقى حتى صباح اليوم التالي. «الجناح 9» يعجبه أيضا، لفظة «جناح»، رغم أنه لا يفهم بالضبط معناها، تبدو له جديرة بصبرينا لاف.

وسط مجموعة بيوت، صعد على الرصيف، وتوقّف، دون أن ينزل من دراجته، أمام شباك محطة الحافلات، فعلم أن الرحلة إلى بوينس آيرس تتم عبر حافلتين، الأولى تذهب حتى حافة الماء، حيث

زورق سريع يعبر بالمسافرين مجموعات، فيما الثانية تنتظرهم في الجهة الأخرى. وهذا يكلف خمسين بيسوس ذهابا. استفسر عن المواعيد وقطع بعض مئات أخرى من الأمتار باتجاه وسط المدينة. ذهب إلى أخيه. ضغط على جرس بيت ذي نوافذ عالية ومشبكة. انتظر برهة، وأعاد الرنين. فتح له أخوه وهو في سروال داخلي، شعره أشعث والنعاس بادٍ على وجهه.

«ماذا دهاك كي تأتي في هذه الساعة يا فرخ. ماذا تريد؟

- الساعة الآن منتصف النهار ونصف، - قال دانيال.

- أنت الذي ضغط على الجرس منذ حين؟

- لا.

- اللعنة.

- وماريا تيريزا؟

- نائمة. لا تحدث ضجيجا. حسنا. ماذا تريد؟

- هاتف راميرو في بوينس آيرس.

- لماذا؟

- لكي أعرف.

- ليس له هاتف ولكني سأعطيك عنوانه. «بحث عنه في كنّش وسجله على ورقة». خذ. لا تهبط عليه فجأة لتقول له إنك قادم للنوم. قل له هل يمكن، هل لديك مكان، أشياء من هذا القبيل.

- واضح، - قال دانيال.

- هو صديقي، يا فرخ، وليس صديقك.

- فهمت. ولكن هذا لا يمنع أنه مدين لي بمائة بيسوس مقابل الدراجة النارية. هل لديك قليل من المال تقرضني إياه؟- سأل دانيال.

- أنا الذي لا يعمل وأنا الذي تطلب منه نقودًا؟

- لأنهم في زايشو لا يدفعون لي أجرتي ما دامت الطريق مقطوعة. أنا بحاجة إلى خمسين بيسوس.

- ليست لديّ يا فرخ. متى تسافر؟

- لا أدري. حالما أقدر».

غادره محبطا وذهب إلى فيغاري وكان يملك «كومبي»[1] تربط بين منطقتهم والعاصمة. في الشارع، كان الضوء يحرق ألوان الأشياء بارتداداته البيضاء. طرق باب بيت. فتحت له الباب قالت إمرأة له إن فيغاري في الحانة المجاورة.

أبصره من النافذة. كانت يتحدث مع شخص يدير له الظهر. ترك دراجته ودخل موسّعا رقائق ملونة من البلاستيك تمنع تسرب الذباب. عندما حيّى فيغاري، اكتشف أن محدثه هو السمين كربوني.

«ماذا تريد؟ - سأل فيغاري.

- كم تكلف الرحلة إلى بوينس آيرس على متن الكومبي؟

- عشرين.

- هل تحجز لي مقعدا لهذا المساء؟

- ماذا تظن؟ أن لي أسطولا؟ إنها كومبي، يا صغيري، وليست

(1) كومبي: حافلات صغيرة لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص.

بسفينة».

كان السمين كربوني يتابع المشهد مبتسما؛ مدّ يده لفيغاري وقد نهض لينصرف. ثم نظر إلى دانيال وقال له:

- تلفزيونك يشتغل؟

- نعم.

- قناة البورنو أيضا؟

- نعم.

- ولم تجعلك أعمى؟

- لا ، -قال دانيال وهو يستدير للانصراف-. أمسكه السمين كربوني من ذراعه.

«أرني معصمك. ألا يؤلمك كثيرا؟»

ملّص دانيال ذراعه. كان السمين كربوني كثير الإقبال على البيرة.

«اجلس. سأقول لك كيف تذهب إلى بوينس آيرس. خذ بيرة.

- ما عندي نقود.

- أدعوك»، - قال وطلب بيرة.

جلس دانيال.

«لماذا تريد أن تذهب إلى بوينس آيرس؟

- تلك أمور تخصني.

- أمور تخصك، أوكي. اسمع، حكاية الحافلتين هي عملية احتيال لحملك على تسديد مبلغ أكبر بدعوى أنهم سيدفعون

أجرة أربعة سواقين بدل اثنين، إضافة إلى عبور الزورق. ذلك ما يقولون. ولكن لم يبق غير مائتي متر لأن المياه تنزل وهم سينقلونك في زورق بمحرك. إذن، انس هذا. ما ينبغي أن تفعله، هو أن تذهب إلى المركّب الاستحمامي، لِراكانو هناك طَوف. ينزل النهر. كل صباح على الساعة الخامسة، سوف يحملك حتى جسر الطريق الوطنية مقابل بضعة بيسوس. وبعدها توقف السيارات المارة. ولكن سأقول لك كيف.

تطلع دانيال إلى عينيه المزججتين. كان الرجل يتوقف عند كل جملة وكأنه يريد أن يمنح الكلمات وقتا كي تستقر في مكانها من رأس مخاطَبه.

«لا ترفع إبهامك على حافة الطريق. ينبغي أن تذهب حيث تتوقف السيارات والشاحنات وتسألهم إن كانوا يستطيعون نقلك. رفع شارة الوقوف على الطريق بدعة من ابتكار السينما. الشخص الذي يسير بسرعة مائة وستين يكون في بُعد آخر، لن يتوقف لينقل معتوها يمشي في البرية الخالية، مفهوم؟ اذهب إلى محطة بنزين أو إلى الأماكن التي نتوقف فيها وسل حاجتك. من يقبلون بسهولة هم سواقو الشاحنات الصغيرة. إذا لاحظت أن سائق الشاحنة الصغيرة من براغواي فلا تركب، كلهم منحرفون. في الليل، استعمل قدميك، لأنه إذا هبط الظلام ولم يحملك أحد فلا فائدة من تضييع وقتك. في الليل، لا أحد يجرؤ على نقل شخص، إذن المشي أفضل. ذات مرة، ودون أن أتفطن لذلك، مشيت من هولت إلى القناطر. عندما طلع النهار ورأيت أين أصبحت، لم أصدّق. إذا جرت الأمور كما تريد ونقلك أحدهم

حتى بوينس آيرس، فسوف تبلغها في نصف يوم. إذا حدثك السائق حدّثه؛ وإذا رأيت أنه يغلق فمه فأغلق فمك. بالغتُ في الهذر ذات مرة، ولما توقفنا عند محطة البنزين ذهبت لأتبول، فانصرف الرجل وتركني». ولّى السمين كربوني وجهه ليتذكر بشكل أفضل واسترسل في الضحك. «آه، لكم سافرت. عندما كان القطار لا يزال في الخدمة، ركبته مرتين خلسة. كنت عندما يأتي المراقب، أصعد إلى السقف. كان القطار عبارة عن عربات كبيرة بنّية. تقطع المسافة في يوم تقريبا، حتى أننا كنا نتصور أن لن ندرك مقصدنا أبدا. أرأيت كيف صارت محطة الأرتال؟ لم نعد نجد حتى جذول السكك. خير لك أن ترحل. هذه مدينة خرائية. انظر قليلا، (يقول وهو يومئ بذقنه إلى الشارع). كل شيء ميت. لا شيء يحدث. إذا أردت أن تختلس في كوروغوازو، فلا تختلس ليلا، اختلس ساعة المقيل، فلن يتفطن إليك أحد. أثناء المقيل، يمكن أن تسرق حتى تمثال سان مارتن بحصانه وتوابعه، وحتى الكنيسة إن شئت. اسمع واحتفظ بهذا لنفسك: التلفزيون الذي أخذته، هو للراهب فيلارينيو. ذات سبت وقت القيلولة، قفزت على جدار المعهد، ودخلت غرفة أكل الراهب واستوليت على التلفزيون ومفكّ الشيفرات. كان الرجل نائما في الغرفة المجاورة. لا أحد تحرك. حتى الرب. أما هو فلا شك أنه حسب أن الرب سحب منه تلفزيونه عقابا له، لأنه ما دام لديه مفك شيفرات، فمعناه أنه يشاهد أفلام البورنو. لا تقل لي إنه يتجنب البورنو عندما يشاهد قنوات الكبل. لهذا جُعل، للرهبان الذي لا ينكحون. وأنت، كم عمرك؟».

– سبعة عشر، – قال دانيال.

- ولم تنكح بعد؟

- ماذا يهمك؟

- إذن، لم تنكح، قال السمين كربوني. بتلك النقود التي صرفتها لترى الآخرين يغمسون بسكويتهم، كان بإمكانك أن تغمس بسكويتك بحق وبشكل مباشر أربع مرات على الأقل. في سوسورّوس. توجد بعض البنات الحلوات.

- هذا لا ينفي أن ذلك يستحق، - قال دانيال وهو يحتسي جرعة بيرة.

- بجدّ؟ لماذا؟ - سأل السمين كربوني.

- تلك أموري الخاصة.

- أمورك الخاصة. ربما، ولكن لا يمكن أن تقضي عمرك بصّاصا. سوف يكون مصيرك كمصير الأبله ابن ميرتا، تلك التي تزوجت ساليناس. الولد عمره نحو عشرين عاما ولا يتقن الكلام، له رأس عجل ضربته الشمس. يختفي أحيانا وقت القيلولة، ولا يستطيع أحد أن يعرف أين ولى وجهه ما لم يُسمع صراخٌ في بيت من البيوت. لأنه كان يدخل ويتطلع إلى البنات وهن نائمات. كان يتأملهن، لا أكثر. لم يكن يلمسهن. يجلس على السرير ويبقى هادئا. لا تظن أن ذلك متروك للصدفة، كان يختار أجملهن. أخو كابي أراد قتله. فاجأه وهو يغرز نظره في زوجته بيتّـي، تلك التي كانت أميرة في الكرنفال، في موكب أليغريا، أتذكر؟ دخل ذات يوم إلى غرفتها ورآها تنام عارية،

وذلك الأحمق جالسٌ حذوها ينظر إليها. طارده بطلقات نارية ولكنه لم يصبه. لذلك قيل لأمه يجب أن يودع في السجن بعض الوقت، ولما رفضت قيل لها: «ماذا تفضلين؟ أن تبكيه لمدة سنة أو مدى الحياة؟ لأنه سوف يقتل في هذا اليوم أو ذاك».

نظر دانيال إلى البار. لم يكن به من زبائن سواهما. مروحتان لا تقويان إلا على تحريك الهواء الساخن. على ركن من الكنتوار شمعة مطفأة ذابت على الزنك؛ وفي الطرف الآخر رجل أصلع يجمع كؤوسا غليظة لا تزال مبللة ويصففها على رف. تثاءب دانيال ثم قال:

«عليّ أن أنصرف. شكرا على البيرة.

- امضِ. حظًا سعيدًا على الطريق».

عندما عاد إلى بيته، وجد أخته فيفيانا تنشر الغسيل في الفناء. لاحت له من نافذة المطبخ، وهو يأكل بيديه ماأعِدّ له من أرزّ. لاحظ أنها قصّت شعرها. خرج وحيّاها.

«دانيال، هل يمكنك أن تفتح غرفتك كي أنظفها قليلا؟

- قصصتِ شعرك؟

- نعم. هل تفتح؟

- لا.

- لم لا تريد أن تفتح؟ ليست بضعة ملصقات صور بنات عاريات هي التي تزعجني. لقد سبق أن رأيتها.

- ليس من أجل هذا.

- لِماذا إذن؟ ماذا تخفي؟

- أوه... مخدرات، أسلحة، شخص محتجَز...

- لا تتصنع الغباء.

- تلك شؤوني. حياتي الخاصة. سأتولى التنظيف بنفسي، لا تقلقي. هل تقرضينني خمسين بيسوس؟

- دانيال، لقد اتفقنا، بما أنك انقطعت عن الدراسة، أن تبدأ بكسب قوتك بنفسك. ماذا يحدث في المصنع؟

- لا عمل حتى يعاد فتح الطريق.

- ولكن لا أستطيع أن أسأل إيميلو بأن يمدني بالمال باستمرار يا أخي الصغير. اعلم أنه هو الذي يدفع كل شيء للجدة، طعامها، ضرائب هذا البيت. الشيء الوحيد الذي نطلبه منك هو أن تكسب مصروف جيبك.

- لا أطلب منك أن تعطيني إياها. سأرجِعها إليك.

- ولماذا تحتاج إلى هذا المال بصفة عاجلة؟ سألته.

- سأقضي بضعة أيام في بوينس آيرس».

وانطلق النقاش. فيفيانا لا تريد أن تتركه يذهب. ودانيال يجيبها بأنه لا يحتاج إلى إذن منها في النهاية، مضى إلى غرفته، كتب على ورقةٍ التعليمات التي تلقاها بالهاتف. واستلقى على السرير لينام بضع ساعات.

في الساعة السادسة مساء، عندما نهض، كانت أخته قد انصرفت، والشوارع أكثر حركة. والناس يتناولون المتة[1] على الرصيف،

(1) المتة: بهشية شاي تتناول بكثرة في أمريكا الجنوبية، وتسمى بشاي براغواي أو شاي اليسوعيين.

وسيارات ودراجات نارية ودراجات تتنقل. سار حتى الشارع الكبير. وجد بعض رفاقه يدخنون وهم جالسون على المدارج في ركن بناية البريد القديمة. عرضوا عليه سيجارة فانخرط في ملاحظاتهم الدقيقة القائمة على تبين أبسط تغيير طرأ على الروتين اليومي للتعليق عليه: «أرأيت العَجلات الصالحة لكل أرضية التي جعلها الزنجي سوسا في سيارته الشفرليت؟»، «هل غيّر أخو هوراثيو دراجته النارية؟»، «إنها صديقة فابيانا، تلك التي عادت من ميسيونس»، «تشي، أتدري أني زرت مساء أمس أرييل، في بيته كبل وقد شاهدنا معا برنامج صبرينا لاف على قناة البورنو». لم تندّ عن دانيال نأمة. «المرأة سحبت عن طريق القرعة من سيقضي الليلة معها. تصور ما سوف يكون. يا لها من قطعة يا صديقي ! لها جسد يصيب القديس بلعنة. أرييل هاتفهم، عنده رقم وما إلى ذلك، ولكنهم صرفوه بغلظة. تخيل قليلا نزهة الجواد التي سيغنمها الفائز». تابع دانيال المتحدث بعناية، ثم حول نظره إلى السماء وواصل التدخين.

«وأنت، ماذا عندك؟ سأله أحد رفاقه.

– لا شيء، ردّ دانيال. هل يمكن لأحدكم أن يرافقني إلى منطقة المترجلين؟».

نهض فرناندو، وهو شاب قصير مدموك يضع على عينيه نظارة سوداء، وتبع دانيال وهو يتملى البنات اللاتي يمررن على الرصيف أو على دراجات نارية في الشارع، ويلتفت ليتابعهن بنظره حتى يتوارين. في شارع المترجلين نساء أكثر عددا. مراهقات يتنقلن في شكل مجموعات، أو عاملات محلات تجارية. «أثناء في الساعة الحادية

عشرة»، يقول له فرناندو، مستعملا أسلوب الطيارين، الذين رآهم في السينما، ليشير إلى حيث توجد طائرة عدوّ. ودانيال، كأنه موضوع في إطار بندول، ينظر باتجاه الساعة الحادية عشرة ويعلق وهو يرى قربه فتاة ذات نهدين ناضجين شامخين يرتجفان تحت القميص القصير الذي لا يغطي السرة: «سروال داخلي في السادسة»، ويركزان عيونهما دون أن يتوقفا على زبونة محل لبيع الأحذية كانت تقيس مداسا، وهي جالسة في تنورتها الحسيرة على كنبة واطئة.

قطعوا المكان جيئة وذهابا عدة مرات دون أن يفلت منهم أي شيء. عند دكان مثلجات، طلب فرناندو مثلجة بالكرز، نكهة - لم يكن مفتونا بها - موضوعة في مكان يضطر البائعة إلى الانحناء نحو الأمام بشكل خطير لتغرز الملعقة في الإناء، وتكشف عن كونها لا تلبس أي شيء تحت مئزرها الأزرق الفاتح.

تناول فرناندو مثلجته وهو على ظهر مقعد ورجلاه على المجلس. سأل دانيال هل يود مرافقته في الغد لصيد السمك. أجابه دانيال بأن ذلك غير ممكن، لأنه ذاهب إلى بوينس آيرس. كاد يبوح له بسبب سفره، ولكنه اكتفى بالقول إنه يريد أن يكتشف المدينة، وإنه سيتنقل عبر النقل الإيقافي. تحمس فرناندو واقترح مرافقته. حاول دانيال أن يثنيه عن عزمه، ثم قبل.

- سأجيء باكرا، - قال.

- ارم شباك بيتي بحجر كي توقظني. ماذا أحمل؟ جرابا؟

- «نعم»، - قال دانيال، «لا تثقل كاهلك».

افترقا في زاوية الميدان. كانت السماء قد صارت وردية. سار

دانيال على المسارب المبلطة بين النخيل. أبصر الأب فيلارينيو مارا على دراجته وثوبه الكهنوتي يتموج في الهواء، فتذكر السمين كربوني والتلفزيون. تقاعس قليلا عن العودة إلى البيت، وسار بخطى بطيئة متابعا مرور السيارات وأضواء مصابيحها الأولى، وهو يصفر، ويداه في جيبيه، موسيقى استعراض صبرينا لاف.

(3)

نام نوما عسيرا، منهرسا بالمشاغل. فكر برهة أنه يستحسن ألا يسافر، خصوصا أن الطريق التي سينتهجها هي التي هلك فيها أبواه، ثم إنه لا يدري، إذا وصل إلى بوينس آيرس، كيف سيتدبر أمره في شسوع الشوارع المجهولة، ولا ماذا يحصل لو رفض صديقُ أخيه إيواءه. ولكن ما يخيفه أكثر، وانتهى إلى الإقرار به، هو موعده مع صبرينا لاف؛ لا شك أنها تنتظر مضاجعة رجل مجرب، وليس مراهقا لا عهد له بالمرأة إطلاقا. وبدل من أن تتبسط صبرينا لاف، نجمة الحب، في عرض سعة معرفتها، قد تضطر إلى قبول تعليمه قواعد تلك المعرفة، حتى وإن كان ذلك لا يخلو من فتنة؛ حين يستعيد أفلامها، يبدو له أن أفضل مشهد هو ذلك الذي تؤدي فيه دور معلمة مدارس وتضع أحد تلاميذها في ركن عقابا له. «لن تنظر بعد اليوم إلى ساقي المعلمة صبرينا»، كانت تأمره وهي جالسة إلى الكتب ورجلاها متقاطعتان، «لن تنظر بعد اليوم إلى ظهر المعلمة حين تكتب على السبورة» ثم تنهض وتوليه ظهرها لتخط بالطبشور، رافعة مئزرها الأبيض القصير بتؤدة لتكشف عن عجيزتين ورديتين مدورتين مثل كوكبين توأمين. أخيرا، يلجها التلميذ من خلف، فيها

هي منحنية على مكتبها تلتهم التفاحة التي أهداها إياها، وسط نُزاب ظبي مغتلم وقضم عنيف.

لم ينتظر رنين المنبه. ما إن رأى المستطيل الأزرق يرتسم على النافذة حتى نهض وبدأ يرتدي ثيابه، فاتر الهمة ذاهلا مثل دمية تتحرك شبه نائمة. ثم تناول ورقة العناوين والعشرين بيسوس التي بقيت له، وجرابا صغيرا وضع فيه بعض ألبسة وسندويتشات وغادر البيت محاولا ألا يحدث ضجة.

سار في أغباش الشارع الزرقاء، ولم تكن الطيور قد شرعت في صداحها بعد. أغلق سترة الجينز ليحتمي من برد الفجر، واتجه نحو بيت فرناندو. عندما حاذى المقبرة، دنا منه كليب أبيض منكس الرأس كأنه يطلب طعاما. ربت دانيال على رأسه تربيتا طرب له الكلب فتبعه. كانت نافذة فرناندو في الطابق الأول من منزل تُزيّن مدخله حديقة موضبة بعناية، فيها أقزام وبجع من الجبس. أخذ دانيال حجرًا مدوّرًا ورفع ذراعه ليرميه على النافذة ولكنّه لم يفعل. ظل واقفا مترددا وذراعه في الهواء. ثم دس الحجر في جيبه كأنه تميمة ومضى وحيدا باتجاه النهر.

كان الماء يُرى من الشوارع المتربة. مر أمام آخر البيوت. بعضها ما تزال فيها تلك الأرصفة التي كانت تبنى فيما مضى لحمايتها من الأوحال. بلغ طريقا محصّبة، حيث تمتدّ متاريس من أكياس الرمل على مسافة طويلة لصدّ الفيضانات. لاحت له الحواجز المشبكة لساحة الحديقة العامة مغمورة، ومرمى كرة القدم والقوائم المعدنية وسلاسل الأراجيح وحلبات التزحلق غارقة تكاد لا تبين، وشجر

الصفصاف يهتز تحت التيار، وقمم بقية الأشجار مثل أيدي غرقى، ومزق ضبابٍ تتسكع وسط شجر الأُكالبتوس. كان النهر الفائض يغطي كل شيء ويملأ الجو برائحة الأرض الندية، وأطراف الشوارع تلحسها ألسنة الماء الكدر، والتمثال النصفي لشاعر المدينة يلقي نظرة يأس صامتة، وقد وصل الماء إلى مستوى شفتيه.

تقدّم والحصى يصرّ تحت حذائه الرياضي. كانت الشمس تستعد للشروق. اكتشف فجأة أن الماء غطى الثنية المتبقية لبلوغ المسطح الذي أرسى فيه الطوف. مرّ بجانبه رجل يقود سولكي[1] ذا عجلتي سيارة، وتجاوزه ملقيا بتحية لا تكاد تسمع. ثم توقف، التفت نحوه وقال:

«أنت ذاهب إلى الطوف؟

- إيه، - قال دانيال.

- أقرّبك إن شئت».

ركب دانيال السولكي، فدفع الرجل بعض أكياس ليفسح له مكانا في المقعد. كان الحصان يدوس الماء في حذر، يريد أن يتأكد من وجود الأرض الصلبة تحت حوافره. سمع دانيال نُباحًا وأبصر الكليب الأبيض الذي تبعه، كان يناديه بالنباح منذ حافة الماء.

« هذا الكلب لك؟

- كلا» - ردّ دانيال.

تقدما برهة في صمت. وفجأة اهتز دانيال مرتعبا: شيء ما بدأ

(1) sulky: عربة خيل من أصل أمريكي ذات عجلتين ومقعد وحيد.

يتحرك داخل أحد الأكياس تحت رجليه، وإذا سمكة سلّور كبيرة وموحلة قد وقعت على أرضية العربة وراحت تضرب بذيلها ضربات عنيفة. أخرج الرجل سكينا وجعل يضرب بالحدّ القاطع رأسها حتى سكنت فيها كل حركة.

«هذه القذارات لا تريد أن تموت، - قال.

- صدتها في الوادي؟

- لا، في باسو دي خيمي. هذا النوع الكبير آتٍ من الشمال، حمله الفيضان».

تأمل دانيال السمكة المرقطة، وسبالها الطويلة اللزجة، وإبر زعانفها. بدا له أن عينيها المدورتين تتركزان عليه في لوم. دفعها بطرف حذائه ليرى ما إذا كانت تتحرك، ولكنها كانت ميتة. حوّل نظره إلى الماء العكر. مرّا قرب كوخ وضيع بني على أكمة من رمل وتراب، ينبو عن الماء، ويحيط به بجع ودجاج وخنازير متراصّة وحصانان نحيلان. وإلى جانبه، فوق مركب، طفل يرتدي زي بوكا جونيور كان يُعدّ الشباك.

ثم لاح لهما الطوف عن بعد. على المسطّح الواسع أناس بدؤوا يمتطونه رفقة حيواناتهم. لما وصلا، قفز دانيال إلى الأرض الرخوة. وقامت امرأة كانت في انتظار السولكي بإنزال الأكياس دون كلمة. ودّعهما الرجل وعاد من حيث أتى.

الطوف عبارة عن زريبة حيوانات عائمة، صنع من ألواح من الخشب الخام، وسياج متصل يشد غالونات من البلاستيك بعضها ببعض. وكان الناس يصعدون مع خنازير وبعض غنم وسلال

دجاج؛ طفل يحمل زوجا من قندس السباخ في قفص؛ رجل يقود حصانا صغيرا أسود لا يكف عن النفخ بقوة مرتعبا من الأرضية المتحركة. أولئك كانوا ممن أغرقت الفيضانات بيوتهم فقصدوا مكانا يابسا، مع الأشياء القليلة التي استطاعوا إنقاذها. وقد حملوا حشايا ربطوها بلحف، وأكياسا مملوءة بصلا وبطاطا وعرانيس ذرة، مع بعض كراسيّ وأواني طبخ. طفق صاحب الطوف العجوز يحدد للناس وللحيوانات مكانها، محاولا أن يجعلها في مواقع استراتيجية لتوزيع الثقل. وكان دانيال آخر من ركب، وقد انتابه خجل من أن غاية سفره مخالفة لغاياتهم، ولكن عندما طلب منه العجوز أن يفك حبل المركب وأطاعه، أحس أن تلك الحركة تدنيه من صبرينا لاف، عندئذ غلبته بسمة لم يستطع مقاومتها.

كانت نتف نبات البونتيديراس[1] والزبد المخلوط بالرمل تنزل النهر وسط جذوع أشجار حملها التيار. والعجوز يقود طوفه بزانة طويلة يستعملها أيضا للخروج من القيعان المرتفعة غير الصالحة للملاحة. كان يمكن حدس مسار النهر من الخط الملتوي لقمم الأشجار الذي يرسم الضفة المغمورة. جلس دانيال على أحد الحواجز الفاصلة بين الناس وزريبة الحيوانات. كانت الشمس قد بزغت. بعدها دنا من العجوز ليسأله كم وقتا يلزم للمرور تحت جسر الطريق. أجابه الرجل بأنهم سيدركونها عند منتصف النهار إذا كان التيار بنفس هذه السرعة. وأنه ذاهب إلى الجزر لوجود أبنائه الثلاثة هناك، مع زورق كبير سوف يجرهم حتى بويرتو شاراي. هناك ينزل

(1) جنس نبات استوائي.

الناس، ومن ثَمّ يصعد النهر فارغا حتى المركّب الاستحمامي. لقد مضى الآن خمسة عشر يوما وهو ينقل المنكوبين. روى له أنه، لما كان عائدا بالأمس، اكتشف على الطوف كابياء[1] لا شكّ أنه تائه لم يجد أرضا يابسة يستقر فيها. طوال عدة كيلومترات غالب المسكين خوفه من صوت المحرك لينجو بجلده، وما إن أحس بالأرض حتى لاذ بها. تفرس فيه دانيال: كان عجوزا إيطاليا من الشمال، ذا عينين زرقاوين غائرتين في محجريهما، يغطي رأسه بقبعة ويدخن سجائر توسكانية قصيرة؛ عرض عليه إحداها بعد برهة، فأولعها دانيال وهو يحمي الشعلة من نسيم الوادي، وما كاد يسحب منها نفسا حتى بدأ يسعل. ضحك العجوز وقال له: «قوية نوعا ما، هه، ولكن هذا يطرد البعوض». ثم سأله:

«هل تحسن السباحة؟

– نعم، – قال دانيال، لماذا؟

– عندما نصل إلى تحت الجسر، لا سبيل للاقتراب من الضفة، لا بد أن أتجنب الدعائم من الجانبين وأمر في الوسط. هي بضعة أمتار على أية حال. ولكن ينبغي عليك أن تصر أشياءك في كيس من البلاستيك لكي لا تتبلل».

أوكل له العجوز الدفة لحظة، وأتى بكيس أعطاه إياه. قبله دانيال وهو خائف قليلا. تطلع إلى شسوع صفحة الماء حيث تنعكس السماء، وحيث لا تنتأ عن بعض قطع أسلاك السياج غير نواعير هوائية وأشجار مثقلة بالعصافير، وتبدو، إذا لم يكن بالجوار أية مرجعية

(1) cabiai أو capybara: حيوان من القواضم يعرف بخنزير الماء.

ثابتة، كأنها لا تتحرك، وأناس ينامون على أكياس. كان الصباح قد تقدم وبدأ الجو يسخن. أحس بالجوع فأكل سندويتشا، وهو جالس محرج، يتظاهر بالبحث عن حاجة في جوف جرابه.

لمح الرجلان الطريق الوطنية من بعيد وقد رسمت أفقا تعبره سيارات بالغة الصغر. ومن حين إلى آخر يلوح لسان أرض جافة. وضع دانيال أشياءه في كيس البلاستيك. كانت الرحلة حتى بويرتو شاراي بخمسة بيسوس، ولكن العجوز لم يأخذ منه سوى ثلاثة لأنه سينزل قبل المحطة النهائية.

«حان وقت الفراق»، قال له.

فهم دانيال أن عليه خلع ثيابه، فجعل يؤخر المسألة ما أمكن. رأى الجسر يدنو مثل قوس قزح أسود يربط أشرطةَ الطريقِ الطويلةَ.

«ينبغي أن تذهب قبل الجسر، حتى يساعدك التيار»، قال له الإيطالي.

نزع دانيال ثيابه وساعته. وضعها جميعا في الكيس وبقي في سروال داخلي.

«اربط الكيس جيدا، سيكون لك كالطوق»، قال له صاحب الحصان.

كلهم، وهم يحتمون من الشمس بملابسهم وقبعاتهم، تطلعوا إليه، وهو عار تقريبا، على يمين الطوف، وصرته بيده. شعر أنه أشد هزالا وأكثر رعبا من أي وقت مضى. كانت أصوات السيارات الناهبة الطريق نهبا قد بدأت تسمع. اتجه العجوز صوب العقد المركزي الذي تشكله دعائم الجسر، الوحيد الذي له من العرض ما

يسمع بمرور الطوف. قبل ذلك بخمسين مترا قال لدانيال:

«امض الآن، يجب اغتنام التيار».

ارتمى دانيال في الماء، مفرجا رجليه، وجِلا. وراح يسبح معتمدا على ساقيه وذراع واحدة، أما الأخرى فكان يمسك بها الكيس الذي كان يساعده في البقاء على سطح الماء. تقدم في خط مائل، محمولا بقوة الماء العكر. حانت منه التفاتة فرأى الطوف وقد بدا له صغيرا جدا بركابه وحيواناته. واصل السباحة، بيأس أقل، لأنه بدأ يقترب من نتف الأسل النابت عند قدم الجسر. أحس قاع الأرض الباردة وبدأ يشق طريقه وسط البونتيديراس ونباتات مائية كانت تلامس ساقيه، وهو في رعب من أن يجد فيها أفاعي. أخيرا بلغ عشب الضفة واستطاع أن يتنفس بهدوء. نظر مرة أخرى إلى الطوف؛ عن بعد حياه العجوز بصيحة. رفع دانيال ذراعه علامة على الشكر. صار الطوف الآن شديد الشبه بورقة تحملها قوة الموج المتعجرفة.

(4)

انتظر حتى جففته الشمس، ثم لبس ثيابه وصعد تل الأرض الصلدة حتى الطريق. كانت السيارات والشاحنات تمرّ في فرقعة كبيرة تاركة هواء مخلوطا برائحة الوقود. سار باتجاه الجنوب حتى وصل إلى محطة بنزين واقعة في مرتفع لا يدركه الماء. اتجه إلى بيت الراحة. صار لزاما عليه الآن أن يجد من يقبل بنقله إلى العاصمة. دنا من رجل ضخم الجثة محمر السحنة كان ينتظر دوره ليملأ خزّانه.

«صباح الخير. أنت ذاهب إلى بوينس آيرس؟» - قال.

- لماذا؟

- هل تستطيع أن تأخذني معك؟

- لا، أنا باق في هذه الناحية.

أحس دانيال أن ذلك ليس صحيحا فاعتراه خجل. رجلان في شاحنة خفيفة رمقاه بازدراء ورفضا هما أيضا طلبه. حاول أن يسوى هيئته أمام مرآة بيت الراحة. أدخل قميصه القصير في سرواله وضمّخ شعره بالماء وسرحه.

عندما خرج، لم يبق في المكان أحد، ولم تلح سوى شاحنة محملة بالحطب راسية في ركن تحت ظل أشجار النيم. كان سائقها يقيل

على أرجوحة شبكية مشدودة إلى المقطورة. جلس دانيال وظهره إلى واجهة المتجر البلورية قرب المدخل، ولـمّا قال له العامل إنه يضيّق المرور. ابتعد بضعة أمتار، وقبع ينتظر قيام السائق. مر الوقت ولم يأت أحد، ولم يبدد السكون غير بعض عصافير دوري كانت تبحث عن فتات وسط حصى موقف السيارات.

ثم أبصر السائق يفيق من نومه. ترقّب قليلا. رآه يتثاءب ويجمع أغراضه؛ رجل في الأربعين تقريبا، مهيب الهيئة، ذو شارب كثّ، وذراع يسرى لوّحتها الشمس. كان يلبس تبانا وينتعل مداسا. دنا منه وسأله هل يمكن أن ينقله.

«لست ذاهبا إلى بوينس آيرس، ولكن يمكن أن أقرّبك حتى مفرق تابيري، إنه على بعد مائة كيلومتر تقريبا». قال له.

هذا مناسب بالنسبة إلى دانيال. كل ما يمكن أن يقربه من صبرينا لاف يناسبه. صعد حجرة القيادة. من علوها بدت له الطريق مغايرة، يمكن أن نرى على مسافة أبعد. الإسفلت يدِقّ حتى الأفق، مثل شريط من الفولاذ.

اضطرّا إلى الصراخ لكي يسمع أحدهما الآخر، لأن صوت المحرك وهبوب الريح كانا ينفذان عبر الزجاج مثل رشقات تشوش كلامهما.

«مِيْ حُسِّلْحَطْ أَهُمْ رَفَّوُوا الطَّري»، - سمع دانيال.

- نعمْ؟

- «من حسن الحظ أنهم رفّعوا الطريق»، -قال السائق مُركّزا على مخارج الحروف-. «بسبب الفيضانات».

- «بالضبط»، -قال دانيال. «طريق المقاطعة التي تربط كوروغوازو مقطوعة».
- أنت من كوروغوازو؟
- نعم.
- ولماذا أنت ذاهب إلى بوينس آيرس؟ للسياحة؟
- «كلا»، أجاب مبتسما، «أنا ذاهب لقضاء ليلة مع فتاة».
- أي فتاة؟
- صبرينا لاف.
- مع من؟
- صبرينا لاف، شقراء تقطع الأنفاس.
- هكذا إذن؟ وكيف ستتصرف لتقضي لية معها؟
- كل شيء مرتب.
- حذار يا صغيري، البنات فخّ حقيقي. تقع في هوى إحداهن، فتتصور أن ثدييها لك، ووركيها لك، كل ذلك من أجل أن تصبح مفتونا بها حد الجنون. النتيجة، أنك وقعت في الفخ الذي نصبته لك لكي تحمل منك، وعندما يولد الصبي، تكتشف أن الوركين هما في الواقع لوضعه وأن الثديين لإرضاعه، أي ألا شيء لك وأن كل شيء هو للطفل. فهمت؟ ديسيبولو كان محقا في قوله: «طيفك كان شصا تسفّدتُ فيه». هي كذلك يا صغيري، استدارات النساء شصّ.
- «أنت متزوج؟» - سأل دانيال.

- «طبعا. محدثك رجل واقع في الفخ».

امتلأ الهواء بعياسيب كانت تلتصق بالزجاج وتتعلق بمكانس مسّاحتيه. عرض عليه السائق بسكويتا وطلب منه أن يخرج قارورة حفظ الحرارة من مقصورة خلفه مع آنية المتة ووعاء الكرنيب. وكان لزاما عليهما أن يغلقا النوافذ لأن الحشيش تطاير. أعد دانيال المتة مضيفا الماء الساخن بالقَدر الذي يرضي السائق ثم سكتا عن الكلام. أسند دانيال رأسه إلى ظهر المقعد كأنه يستعد للنوم.

نظر جانبا. كانا قد تركا خلفهما المنطقة المغمورة بالمياه، فبدت حقول مخضرة وقطعان بقر موزعة بين شجر الكاسيا. كانت النقاط الكيلومترية تتعاقب. لاحظ أنه قريب من المكان الذي مات فيه والداه. ما هو إلا على بعد بضعة كيلومترات. قد يتعرف على المكان المضبوط لأن أخته الكبرى وجدّتَه وضعتا صليبا من الخشب مع اسمي الهالكين. حطام السيارة بقي مدة أمام مخفر شرطة المرور المحلية، كطريقة لتحذير مستعملي الطريق. كان أبوه، قبل موته بقليل، قد أهداه كتابا في تاريخ السيارة، يعرض تطورها من العربات القديمة ذات محرك إلى سيارات السباق، وصار ذلك الكتاب في عينيه نوعا من تفسير موت والديه، وكأن ذلك التطور البطيء كان استعراضا لكل الخطوات التي قطعتها الإنسانية وكان ذلك الاصطدام غايتها الوحيدة، ما جعل دانيال يلصق في إحدى الصفحات البيضاء بآخر الكتاب صورة السيارة المحطمة، تلك التي ظهرت في الجرائد مغروزة في مقدمة شاحنة زرقاء. كان عمره آنذاك عشر سنين، ومن الصورة تبدت له تلك الشاحنة غولا ضخما ظلّ

يطارد أبويه ليفرمهما في قضمة أسنان عنيفة.

ها هو يوشك على الوصول. لمح الصليب عن بعد، في منحنٍ، ورآه يقترب ببطء قبل أن يتوارى سريعا إلى الخلف.

«هنا كاد أحد أصدقائي يقتل»، - قال السائق.

تطلع إليه دانيال، ثم مد البصر أمامه والوجه منه ممتقع قليلا. قبل سنوات، كان أخوه قد هدد بالبحث عمن تسبّب في مقتل أبويه ومن ثمت قتله.

«زوجان ماتا» - قال السائق.

لزم دانيال الصمت.

«أصيب صديقي بكسور في رجله في ستة مواضع، قال. بقيت من أثرها ندبة وردية من ركبته حتى أعلى فخذه. صار أعرج ولم يعد قادرا على السياقة أبدا، ولكن له جراية عن العجز الصحي. أصيب أيضا بكسور في عدة ضلوع وفي الرأس. ولكن ذينك المسكينين اللذين اصطدما به... عندما تزوج، لم يكن يرغب في الأطفال ولكن عقب الحادث، وبعد أن تعافى، حملت زوجته وأنجبت له طفلين تباعا. بنت في البداية، اسمها ثنتيا. كان يريد أن يسميها باسم المرأة التي ماتت في السيارة، انتظر، كيف كان اسمها..».

«مونيكا»، قال دانيال في سره.

«كان يتصور أنها طريقة لتسوية الأمور. الطفل أيضا، كان يريد تسميته باسم الميت. ولكن زوجته أبت. قالت إن ذلك يجعلها تقشعر».

ظل دانيال جامدا، يحاول تركيز نظره على جانب الطريق.

«إنها طريق خطرة، قال السائق. هنا أيضا قتلت يانينا، المغنية. وضعوا هيكلا صغيرا داخل الحافلة المقلوبة. ستراه بعد لحظات. يقال إنها تصنع المعجزات. أنا، لا أعلم شيئا. يضع الواحد أمنيته في صندوق صغير. زوجتي طلبت مني أن أضع فيه أمنيتها. في السابق كنت أتوجه إلى المرحومة كورّيا».

مرّ مزارع على حصان في الاتجاه المعاكس على حافة الطريق. حياه السائق بحركة من يده فردّ المزارع تحيته.

«بالنسبة إلى المرحومة، ينبغي وضع قارورة لأنها ماتت من شدة العطش، أتفهم؟ كانت تسير مع رضيعها عندما ماتت، ورغم ذلك ظلت تلقمه ثديها لإنقاذه. ولكني لم أعد أطلب منها شيئا، لأن صديقي، يومَ وقوع الحادث بالذات، كان قد وضع بضع قوارير في الهيكل الذي أقيم لها قرب مصانع فيديرال. إثرها مباشرة، استأنف طريقه و... كْراكْ... انظر، ها هو مكان يانينا»، قال وهو يوقف شاحنته على الممر الجانبي.

غادرا الشاحنة ونزلا المنحدر حتى وصلا إلى هيكل صدئ لحافلة انقلبت على جنب؛ كانت أغصان صفصاف ويافطات مكتوبة قد شكلت حولها سياجا مرتجلا.

«هذه حافلة الفرقة، «كوارتيتو»[1]. حدث ذلك ليلا، عندما تكسرت عجلة القيادة. خرجوا من الطريق هناك، أرأيت؟ وانحدروا

(1) cuarteto: نوع من فرق الموسيقى الشعبية الراقصة في الأرجنتين، شبيهة بفرق الكومبيا الكولومبية.

بعنف حتى هنا. يانينا هي الوحيدة التي قضت نحبها. كانت غاية في الجمال»، - قال السائق.

كان يمكن الدخول إلى الحافلة من خلف بإزاحة ستار من الباش. من أمام، حيث مقعد السائق، توجد بورتريهات المرأة الشابة ذات الشعر البني والشفاه المثيرة. كانت الشمس تنسرب عبر الزجاج الذي صار الآن فوق موضع الهيكل لينشر على المكان نورا عموديا ملؤه الرحمة. وثَمّ قرابين ورد ومئات صناديق شفافة تضمّ رسائل، وقد زالت عنها جميعا ألوانها وأذبلتها تقلبات الجو.

«كانت معلمة برياض الأطفال قبل أن تنتقل إلى الغناء»، قال السائق وهو يضع صندوقه على الصناديق الأخرى.

- أتدري ما هي أمنية زوجتي؟

- ماذا؟ - سأل دانيال.

- المال والصحة وألّا يصيبني مكروه في الطريق، أشياء من هذا القبيل، ثم ألا أجعل لها قرونا. تفهم ما أعني. كتبت ذلك لكي أقرأه. هذا مؤكّد.

راح دانيال يجيل النظر. بعض الصناديق تحتوي على صور عائلية. خليط أشياء معلقة، لوحات معدنية، مَقاود سيارات، أحذية أطفال، يافطة نسيج مضلّع كتب عليها: «يانينا، سيدة السواقين» وأخرى تحوي كلمات أغانيها.

استأنفا طريقهما باتجاه الجنوب. كانا قد شارفا تابيري حيث يضطر دانيال إلى النزول.

- كيف وقع الحادث؟ - سأل.

- أي حادث؟

- حادث صديقك.

- وما أدراني. لقد تصادمت العربتان بكل عنف في المنعرج. يبدو أنه أغمي عليه، وقد روى لي أنه، لما عاد إلى وعيه، كان صوت المذيع يصدع أذنيه لأن الراديو ظلّ يشتغل ولكن بقوة أكبر. أحس بأوجاع في كامل جسده وأراد أن يخفض الصوت بذراعه. روى أيضا أنه كان في حال من الإغماء جعلته يحس أن صوت الراديو وألم أعضائه متصلان بقاطعة التيار نفسها، تخيل قليلا ماذا يحدث في الذهن. عندما أخرجوه، وجدوه على تلك الحال، مدمى كلّه، نصفَ ميت والذراع تعبث بالراديو. أتعرف أنه حتى اليوم، لو يزوره شخص ما ويفتح الراديو، فسوف يعتريه امتقاع عند سماع صوت المذيع، رغم أن سبع سنوات مرت منذ وقوع الحادث.

نظر دانيال إلى السماء، وقد تلبدت. كان يتعجل النزول، ليبقى وحيدا، ولكنه أيضًا يُريد أن يواصل الكلام. فكر أن يترك ورقة على لوحة القيادة يقول فيها من هو لكي يقرأها السائق من بعد.

«حسنا، سنصل قريبا إلى مفرق الطرق حيث ينبغي أن أحيد. لم تقل لي اسمك.

- دانيال، وأنت؟

- فكتور. ماذا قلت إنها تسمى، الشقراء؟

- صبرينا لاف.

- صبرينا لوف. طيب، نل متعتك. عندك واقيات؟

- لا، لا تشغل بالك...

- كيف «لا تشغل بالك» ! خذ هذه التي أحتفظ بها في صندوق القفازات».

أخرج دانيال كيسا بثلاثة واقيات.

«خذها، (قال له). مع الإيدز اليوم، لا مجال للعب. عندما كنت في سنك، كانوا، إذا أصاب عضونا التهاب، يعالجوننا بحقنة بنسيلين، الآن ما إن تولجه حتى تصاب».

ودع أحدهما الآخر، ونزل دانيال عند مدخل تابيري. سار في الممر الجانبي باتجاه الجنوب. اجتاز مُعلّمتي مدارس ريفية كانتا تمنيان النفس بركوب عربة مارة، وعدة جنود بأزياء الإجازة حيّوه الواحد بعد الآخر وقد انتشروا على طول الطريق أملا في إيقاف عربة تنقل كل واحد على حِدة. لاحت عن بعد محطة بنزين. نظر إلى ساعته. وجدها تشير إلى الساعة الرابعة بعد الزوال. تكشفت السماء لحظة فلمعت الشمس في نوع من القسوة، لتَبري الظلال.

(5)

بعد أن رفضه سائقان، وبعد أن ملأ قارورتين ماءً وأزعج امرأة عجوزا سارعت برفع زجاج نافذتها وإغلاق باب سيارتها إذ دنا منها ليكلمها، أبصر دانيال قدوم بيك آب ذات مسطّح مغطى بالباش إلى محطة البنزين. كان السائق صحبة امرأة. في الخلف، وسط العتمة المخضرة، نحدس مئزرين أبيضين لمدرستين. سأل دانيال الرجل هل يمكن أن يقربه من بوينس آيرس. فأجابه أن بإمكانه الركوب إن شاء، ولكنه سوف يقف عند ضيعة، بعد قرية أغواريباي. صعد دانيال على مسطح البيك آب، كان هناك جنديان جالسان في ركن، إضافة إلى المدرستين. حياهم وجلس كيفما أمكن، والجراب بين رجليه.

في الطريق، كانت الريح تتسلل عبر شقوق الباش وهي تدور وتصفر. المدرستان جالستين في هدوء على واقيتي الوحل دون النظر إلى أحد، وهما تتمايلان معا عند التسارع ودوس الفرامل؛ أما الجنديان، الجالسان على صندوق، فكانا يدخنان دون أن يكفا عن استراق النظر إليهما. توقفت البيك آب وصاح السائق من غرفة القيادة:

«وصلنا إلى خيل !»

نزلت المدرستان وألقتا بتحية مقتضبة حييّة، ومن خلال المستطيل

الذي تشكله فتحة البيك آب، تقلصتا إلى نقطتين بيضاوين في المشهد الطبيعي. لاحظ دانيال أن الجنديين يتحادثان وهما يغمزان بطرفي عينيهما. كان يهم بمشاركتهما الحديث حين تقدم نحوه أكثر الاثنين حلاقة للرأس على أربع، ونتر منه الجراب. وإذا سكين مشهورة فجأة أمام أنفه ليقنعه بألا يبدي مقاومة. «دعه»، قال الآخر، الأكثر سمرة، دون أن يسحب سيجارته. عاد الحليق إلى مكانه بالجراب، ففتحه وجعل يخرج أشياءه في نوع من الجرد الساخر.

«جينز، قال وهو يضعه جانبا، قميص قصير أزرق، زجاجة ماء، يا لها من حيطة، سندوتشات، حذاء... ما لونه؟

- دم متخثر، أجاب الآخر.

- ماذا؟ دم متخثر؟ أين الدم المتخثر في لون كهذا؟

- هكذا يسمى... أو حثالة خمر.

- في نظري، هو أحمر داكن. جوارب حمراء داكنة، كيس، منشفة عليها صورة مصغرة لحصان، مشط، صابون، مزيل روائح، واضح أن هذا الشاب نظيف، فرشة أسنان، معجون أسنان، حسن، شفرة حلاقة، سروال داخلي سماوي، جلباب نوم دسته الأم في جرابه و... ما هذا الذي نرى!».

كان دانيال ينظر إليه بحنق.

«دعه وشأنه، - قال الآخر.

- هذا ليس من قِبل ماما، بل من قبل بابا». أمسك الواقيات من إحدى حواشيها وجعل يؤرجحها بأنامله متصنعا المفاجأة.

«ثم ماذا أيضا؟» فتح الجيب الجانبي. «بطاقة هوية باسم دانيال مونتيرو وصورة أحمق. عشرة، خمسة عشر، سبعة عشر بيسوس؟ تسافر ومعك سبعة عشر بيسوس؟».

- لو كان عندي نقود لسافرت في الحافلة وجنّبت نفسي الوقوع على مأبون مثلك، قال دانيال.

- أنا، مأبون؟ ولكن من سيشرع في البكاء، هو أنت.

- لأنك أنت الذي بيده السكين.

- حسنا، خذها. -قال حليق الرأس وهو يلقي بالسكين عند قدميه مبتسما- والآن، ماذا ستفعل؟.

استولى عليها دانيال، وأوهم برميها خارج العربة.

- لو رميتها فسوف أكسر خلقتك.

نظر دانيال إلى السكين. ثم غطى وجهه بذراعه وجعل يبكي، وهو متكور في ركن من البيك آب. لم يكن يملك الشجاعة. دفع بالسكين إلى حليق الرأس الذي كان يضحك ويطلب من الأسمر أن يتثبت ما إذا كانا يوشكان على الوصول. اتجه الأسمر إلى مؤخرة السيارة، أخرج رأسه، وقال إنهما جاوزا المكان قليلا.

«سبعة عشر بيسوس، لا غير؟ أرني جيوبك، اقلبها»، -قال له. قلب دانيال جيوبه فلم يخرج منها غير الحجر الذي لم يرمه على شباك فرناندو. نقر الأسمر الزجاج وهو يرفع الباش، فتوقفت البيك آب. قال الحليق لدانيال وهو نازل:

«لو تحكي أي شيء، فسوف أقطع خصيتيك وأقدمهما طعاما لخنازير الهند».

عندما استأنفت البيك آب طريقها بعد أن شكر الجنديان السائق، أمسك دانيال الحجر، وألقى به بكل الغلّ الذي ركبه مثل جلدة سوط على الحليق، فأصابه في جبينه. رآه يرفع يده إلى رأسه في ذهول. تناءت السيارة وتوارى الجنديان عن الأنظار.

أعاد أشياءه إلى الكيس وهو يكفكف دمعه مرتجفا. بدا له أن صديقه قد وجّه ذراعه، في وجه من الوجوه. هذا الصباح، أدرك أن عليه القيام بهذه الرحلة وحيدا فاحتفظ بالحجر كتميمة؛ هو مدين بهذا الحجر لصديقه؛ كان قد رفع ذراعه لرميه بلطف وها أنه يفعل ذلك الآن بعنف، مثل حركة وحيدة وفريدة غذتها دفعة مئات الكيلومترات. أسند رأسه إلى الجراب، وظل في ذلك الوضع مفتوح العينين. لأول مرة، أحسّ أنه وحيد.

بعد ساعة، توقفت البيك آب من جديد. سمع دانيال نقرا على الزجاج فنزل. قال له الرجل إنه لا يستطيع نقله أبعد من هنا، لأنه مضطر لانتهاج مسلك فرعي. شكره دانيال دون أن يروي حلقة الجنديين، ولمحه يبتعد في الثنية المتربة مثيرا غبارا أبيض.

(6)

كانت خيوط العذراء[1] تحلق ببطء في هواء المساء. لاح له النخيل أكثر كثافة دائما ناحية الشرق. وفي الغدران المحاذية للطريق طيور مالك الحزين بيضاء، بعضها ثابت في مكانه وبعضها الآخر يخفق بجناحيه في كسل. ومن حين إلى آخر، يمر سرب من الببغاوات الصاخبة. كان إذا سمع صوت محرك، يرفع إبهامه. وكما توقع السمين كربوني، كانت السيارات تنهب الطريق بأقصى سرعة ولا تتفطن لوجوده. هناك، وسط الحقول، وحوله النخل والعصافير، أحس دانيال أنه في بُعد آخر.

كان البعوض لا ينفك يلسعه، في رسغيه، وفي ظهره عبر القميص، وفي أصابعه، وعلى جبينه. حزام الجراب يقطع كتفيه كالمنشار. رأى الشمس تغرب، فأدرك أنه، إذا جن الليل، سينام في العراء أو يواصل المشي.

أنارت السيارات أضواءها، وما عاد المرء يرى السائقين المحتمين بحجرات قيادة مغلّقة ما فتئت تزداد تمنّعا، وهم يمارسون حريتهم في نسقِ نفاثة، يتجاوزونه في بضع مئات أعشار من الثانية بسرعة

(1) خيوط تصنعها العناكب في الخريف فتطير في الفضاء كطيارات الهواء، ويعتبرها العوام خيوطا من زنار السيدة مريم.

البرق، وكأنهم يطيرون تقريبا، فيما كان هو يمعن الغوص بعمق في قلب الليل، مثل حلزون يسير على الأرض ببطء.

لمح ضوءًا فاقترب ناحيته. لاحظ عن بعد أنه ضوء تلفزيون. إلى جانب كوخ متواضع، بني كيفما اتفق على حافة الطريق، بسطة يعرض فيها بطيخ صيفي وعسل وبيض وجبن طازج. على رأسها امرأة عجوز ذات ملامح غوارانية، تعتمر مظلة قش، وتتابع التلفزيون من جانب، وهي جالسة تحت غطاء متآكل من القنب. حياها دانيال.

«تريد حاجة» ؟ - سألت العجوز.

- لا، شكرا. أنا عابر سبيل.

أدار كلاهما رأسه إلى التلفزيون. كانت الجعلان ترفرف حول الضوء المتناوب، وتلتصق بالشاشة لتزحف على رأس مقدِّمة حصة الألعاب وهي تقول: «والآن، لكي تفوز بمليون، اختر رقما على السبورة، بين واحد وعشرة». «أربعة»، قالت العجوز. «سبعة»، قال صوت اتصل بالحصة عن طريق الهاتف. «كلا، يا لسوء الحظ، الرقم هو أربعة، واصل اتصالك بنا، عزيزي، تشاو». كانت الألوان طافحة. قال لها دانيال:

«ألا تريدين أن أخفض اللون قليلا؟

- تخفض ماذا؟

- اللون، قال دانيال وهو يعدل زر التلون لتسوية اللون.

- لا،- قالت العجوز، أعده كما كان وإلا فسوف يغضب ابني. أنا لا أعرف شيئا عن الأزرار. هو الذي يشغله في الصباح ويطفئه في الليل حينما يأتي في طلبي.

أعاد دانيال رفع التلون. فهم أن المرأة تفضله هكذا، كلما زادت الألوان طفرة ازدادت متعتها.

«أنت لا تغيرين القناة البتّة». - سأل دانيال.

- لا.

- هل تريدين أن أعلمك؟

- «لا»، - قالت العجوز-، «هذا مناسب بالنسبة إلي».

تذكر دانيال الفترة التي كان يشاهد فيها التلفزيون مع جدته. كان غالبا ما يغير القناة بشكل يجعلها تخلط النسيج السردي لمختلف الأفلام وتبتكر حكايتها الخاصة، وهي تمتاز بأنها دائما ذات نهاية سعيدة، فبعد فسحة من الوقت تقضيها أمام الشاشة، وحين تأتي الضحكات والقبل والبوح الغرامي، تنهض قائلة: «كم هي جميلة، هذه النهاية !»، وتترك دانيال مذهولا أمام السيناريو الذي استطاعت إعادة خلقه.

ودّع العجوز وغاص من جديد في ظلمة بدت كأنها من عالم آخر. كان ثَمّ نجوم وهلال تقطع الظلال، ولا تسمح بتبيّن وجهة الطريق إلا لماما. جرع شربة ماء من القارورة التي حملها معه، والتهم آخر سندويتش دون أن يتوقف عن المشي أو يكفّ عن هرش أثر اللسعات. كان متعبا، أرهقه الحرّ، واعترى قدميه ألم صعد حتى ركبتيه. لقد آثر مواصلة المشي على النوم في ذلك الكوخ البائس. عزلة الحقول تخيفه أقل من صحبة الأغراب. لم يبق له غير يوم للوصول إلى حيث صبرينا لاف، وكلما كان مضطرا إلى السير أثناء هذه الليلة، ازداد قربا منها في فجر يوم السبت. كان لا بدّ أن يواصل، برغم

صدغيه ويديه المنتفختين من لسع الحشرات، والرغبة في الاستلقاء والنوم في أي مكان، حتى ولو وجدت ثعابين. وبرغم خوفه من أن يدركه الجنديان ويتركاه ميتا في حفرة، كان لا بدّ أن يواصل برغم رغبته في البكاء، لأن هناك، في نهاية كل هذه الكيلومترات، هي في انتظاره على سرير ناعم، هي، صبرينا لاف الحقيقية، ليست تلك المهبطية التي لا تُدرَك، بل المرأة ذات اللحم وذات الفخذين الأشقرين اللذين سينفتحان لاستقباله، تلك التي ستنطق باسمه وهي تلهث في أذنه كما يتخيلها الآن: صبرينا لاف وهي تقترب مثل شعلة في الظلام، تاركة ثيابها خلفها، منبثقة من العدم الليلي، تدنو منه بخطى بطيئة، شرسة، والنظرة مليئة بوعود حامية، والفم المنفرج مملوء بقبل عذبة وأسنان سوف تتباعد وترطب الجو، لتترك المجال للّسان المحترف. خُيلّ إليه أنه لو استلقى على العشب فسوف يحتفظ بهذه الصورة، ولو لزم هذا الوضع وجعل جرابه تحت رأسه فسوف يظلاّن متعانقين، وربما ينام هو بعض الوقت...

ردّه إلى يقظته صوت عشب يداس. فتح عينيه. كان محاطا بحيوانات سود تلامس النجوم، رؤوس كبيرة تدنو منه فتتشمّمه ثم تنصرف. كان مُحاطًا بأرجل تطأ الأرض، وأنفاس، وقرون تقترب وتولي الأدبار بلا نهاية. لم يتحرك، كان مُرتعبًا، عاجزًا، إلى أن لاح طيفان أسودان لفارسين في السماء المصطبغة بزرقة الليل.

«لقد غفوت»، قال دانيال وهو ينهض.

شرد الحصانان فجأة، ووجد الفارسان صعوبة في السيطرة عليهما.

«من أنت» ؟ قال صوت غاضب.

- اسمي دانيال مونتيرو، وقد نمت. أحاول إيقاف السيارات للذهاب إلى بوينس آيرس.

- «ولكن، يا صغيري، لحسن حظك أن الحيوانات لم تدهسك»، قال الصوت وقد لان قليلا.

قدم المزارع نفسه، اسمه تورو رينوزو، وهو يقود مع ابنه الأبقار للرعي على حافة الطرقات، لأن الحقل الذي استأجره غمرته المياه. قررّا إقامة سياج باستعمال الحبال، والأسلاك الحديدية الموجودة وأشجار الكاسيا لمنع الحيوانات من الشرود. ولما أتمّا أوقدا نارا. كان دانيال يحدس تحركاتهما وهما يزيلان السرجين عن الحصانين ويجمعان الحطب. جاءهما ببعض الأغصان اليابسة. بدا وجهاهما على ضوء التهاب الجمر. رينوزو يشبه غجريا بشاربه الكث الأبيض وطاقيته الحمراء، وابنه في الثانية عشرة تقريبا، وعيناه المركزتان على النار تشبهان عيني أبيه.

«أنتما ذاهبان بعيدا»؟ - سأل دانيال.

- كلا، فقط في هذه الناحية.

- البحث عن العشب لم يعد يتم بهذا الشكل، أليس كذلك؟

- لا، الماشية، ننقلها في الشاحنات.

كان يتخلل ذلك لحظات من صمت طويل، ودانيال يلح في أسئلته وتعاليقه، ولكن غالبا ما يفتر الحديث أمام اقتضاب أجوبة المزارع، الذي راح يبري قطعة حطب بسكين كبيرة سوداء، ويلقم النار بين الحين والآخر بروث البقر لكي يطرد الدخانُ البعوض. تناولوا المتة بماء غلّي في آنية على الجمر، ثم بحث كل واحد منهم

عن مكان للنوم. ظل دانيال برهة يتأمل النجوم، ويسمع أصوات محركات ما انفكت تتضاءل، وصرير جداجد، وخوار عجول تائهة وأمهاتها الباردة الطبع، إلى أن تفتت كل شيء بصورة بطيئة وغام مثل صور الحيوانات التي تشكلها السحب أحيانا.

(7)

ظل الحوت الذي لفظه البحر على قمة شجرة الأمبو بعد تناقص مياه الفيضان. وقف مع تلاميذ بزيهم المدرسي تحت الشمس في طابور طويل تنظمه مدرّستان، حتى حان دوره لصعود السلم فرأى الحوت عن قرب. لم يميز جيدا جذور الشجرة وأغصانها وفروعها من زعانف الحيوان وشواربه، لأنه في الواقع كان سلّورا ضخما، وليس حوتا، ولكن من المستحسن ألا يقول عن ذلك شيئا. ميّز فجأة عينه وكانت تعكس نزعا بطيئا وصامتا. كان عليه أن ينزل لكي يتمكن الآخرون أيضا من رؤيته. الأطفال والعصافير يزقزقون. فتح عينيه. كانت الكاسيا التي نام تحتها تعج بزرازير سوداء طارت بمجرد أن تحرك. لم يجد رينوزو وابنه. لمح رماد المجمرة. الساعة تشير إلى التاسعة صباحا. نهض فرآهما يبتعدان، وهما يقودان الماشية بأصوات عالية.

كانت أطرافه مثقلة، جمع أشياءه، بال على الجمر وقصد الطريق خلفهما. خُيلّ إليه أن في رجليه بثورا، ولم يشأ أن يتأكد. كانت السماء غائمة، وحركة المرور أكثر انسيابا من الأمس. تذكر فجأة أن اليوم هو السبت، وأنه يوم موعده مع صبرينا لاف، فانعقدت معدته.

حادث مدّ له يد الغوث. كانت بقرات رينوزو وابنه قد اقتحمت الطريق دون أن يستطيعا منعها، فعطلت مؤقتا حركة المرور. اقترب دانيال من شاحنة رمل متوقفة بانتظار فسح الطريق.

«نحن ذاهبان إلى إيبيكوي، حيث يعاد تبليط الطريق، قال مساعد السائق.

- كل ما يقربني من بوينس آيرس يناسبني.

- اصعد في الخلف.

- احذر الإغوانا[1]، - صاح الذي يمسك المقود.

سمعهما دانيال يضحكان. ألقى بجرابه داخل المقطورة وصعد وقد داخله سرور. عندما نجح رينوزو في إرجاع البقر، انطلقت الشاحنة وكذلك العربات الأخرى. حرك دانيال يده وهو مار ليحيي الأب وابنه.

تمدد على كدس رمل نديّ، وعيناه إلى السماء. وسرعان ما نوّمه ضجيج الشاحنة المتقطع. كان يغمض عينيه، فإذا أيقظته مناورة مفاجئة تأمل العصافير أو تابع حركة السحب. لفحته هبّة ريح غطت وجهه بالرمل. قوم جذعه، وما عاد يرى شيئا، فحمى وجهه بذراعه وعثر وهو يبحث عن مكان أكثر أمانا في الناحية الأخرى من الكدس. فرملت الشاحنة وتسارعت، فخطا بضع خطوات ليحافظ على توازنه وداس على شيء رخو وغضروفي، وارتد إلى الوراء. فما اكتشفه ملأه رعبا: رجل ميت في ما يبدو، النصف الأيمن من جسده مردوم تحت الرمل. ووجهه ذو القسمات الهندية لا حراك به. قدر

(1) حيوان زاحف من فصيلة التمساحيات.

أن السائقين قتلاه وأرادا إخفاء الجثة. قال في نفسه إنهما سيقتلانه هو أيضا. فكر في القفز من الشاحنة حالما تخفف سرعتها. وقطع على تلك الحال عدة كيلومترات دون أن يستقر على رأي، وأخيرا استجمع شجاعته ودنا منه وهزّ كتفه. سعل الرجل، تحرك، فتح عينيه قليلا ونطق بضع كلمات بالغواراني[1]. حاول دانيال إسناده، ولكن إحدى رجلي الرجل وإحدى ذراعيه كانتا مشدودتين. أزاح دانيال بعض الرمل بيديه لتخليصه. بدت الذراع معطلة بشيء ما، فعاود الحفر، فإذا يد الرجل ممسكة بمقبض. أخيرا أخرج من تحت الرمل باطية فارغة. فلما خُلّص الرجل جلس.

كان في الثلاثين، شارد النظرة، خامل الحركة، لم يصح تماما من سكره. أسند ظهره خائرا إلى حاجز المقطورة، فجلس دانيال حذوه دون أن ينطق بكلمة.

«من أنت»؟ - سأله الرجل وهو يتفحصه.

- دانيال مونتيرو. طلبت الإذن عندما توقفت الشاحنة وركبت.

- اللعنة. كدت أبقى دفين هذا الكوم من الرمل. أين نحن؟

نهض دانيال يرمق المنظر الطبيعي.

«لا أدري. لم نصل بعد إلى إيبيكوي» قال بصوت أكمد، لأن الريح القوية الساخنة كانت تخنق كلماته.

ثم أخرج من جرابه قارورة الماء وناوله إياها.

---

(1) أو أفياني إي avañe'ẽ: لغة يتكلمها ستة ملايين نسمة من شعب غواراني في شمال الأرجنتين وشرق بوليفيا وجنوب وشمال شرق البرازيل، وهي اللغة الرسمية في براغواي إلى جانب الإسبانية.

«هذا سمّ»، قال الرجل بعد أن شرب جرعة، ولكنه جرع منها ثانية وبدا أنه أحسن حالا.

- خوذتي بقيت تحت الردم.

- أي خوذة؟

- خوذة الحظيرة. أنهينا شحن الرمل فجر هذا اليوم في كولون ثم نمت. لا شك أن الرمل انجرف بسبب خضّات الشاحنة.

لاحظ داينال لكنته البراغوائية.

«شربت الطابية كلها»؟ - سأله.

- «ليس كلها. عندما حصلت عليها كانت مبدوءة».

كانت لفحات الرمل تقطع الحوار؛ وكانا أحيانا يطمران رأسيهما بين الركب، أو يحتميان بالأذرع. دامت الرحلة ثلاث ساعات وسط الارتجاجات والهزات التي يحدثها السائق.

لو لم توقظني، لبقيت هنا تحت الردم. ما هو اسمك، قلت؟

- دانيال مونتيرو. وأنت؟

- يدعونني الإغوانا ولكن اسمي ألدو. أنا من أسونثيون.

- وأنا من كوروغوازو.

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- «إلى بوينس آيرس»، - قال دانيال.

- للعمل؟

- «لا»، لأقضي الليلة مع بنت.

- مومس؟

- لا، - قال دانيال.

- الأولى؟

- تقريبا نعم.

- من كوروغوازو إلى بوينس آيرس وأنت منتقل إيقافي من أجل قذفة؟ هذا مبالغ فيه يا صديقي.

- «ولكن البنت تستحق هذا التعب. الرمل الذي تنقلونه، لأي غاية؟» - قال دانيال ليغير مجرى الحديث.

- «من أجل خرسانة الجسور. إنهم يوسعون الطريق لكي يكون هناك مسلكان من الجانبين، بدلا من واحد، لأن أناسا كثيرين، كما هو الشأن الآن، يموتون».

أخرج ألدو من جيب قميصه علبة سجائر ومنح منها واحدة لدانيال. وجدا صعوبة في إشعال الأولى، ولما تمّ لهما ذلك، طفقا يدخنان. كان الدخان يكاد لا يرى، إذ سرعان ما يزول؛ فيما رماد ينسل وحده ويصعد في شكل لولبي قبل اضمحلاله.

أبصر دانيال في الأفق بعض السحب السوداء.

- هل ستمطر؟

- «ليس الآن. الليلة». قال ألدو.

نزلا في فضاء وقوف السيارات حيث آلات وشاحنات محملة بالمعدات. انتفضا عند النزول للتخلص من الرمل. ألقى ألدو الطابية الفارغة بين الأعشاب، ودعا دانيال إلى تناول الغداء معه رفقة عمال الحظائر الآخرين، وقال له إنه سيقدمه لهم بصفته مساعد سائق

الشاحنة، وإنه لن يدفع شيئا. رفض دانيال في البداية، ولكن لما كان جائعا وعلى يقين من أنه، من دون مال، لن يستطيع أن يَطعم، فقد قبل.

أتيت على النبيذ يا إغوانا؟ سأله السائق.

– لقد ضحكت عليّ، قال ألدو. أنا من دفع ثمن الطابية واحتفظتم أنتم بالنبيذ وأنا بالكأس.

– تركنا لك قليلا على أية حال.

– إيه، القاع.

كان الرجال يضحكون وأثر السكر ما يزال مؤثرًا فيهم.

«أسمراني، قال ألدو للسائق، هذا الفتى سيأكل معنا. إن سألوك، قل إنه مساعدك».

اتجهوا إلى خيمة كبيرة، بها أناس يتغدّون وقد جلسوا إلى طول لوحات خشبية مرفوعة على محامل، وآخرون واقفون في طابور لتلقي طبق مرق باللحم. التحق بهم ألدو ودانيال والسائقان. قال ألدو للمكلف بملء الأطباق بمغرفة أن دانيال معهم. أخذوا ملعقة من صينية وكسرة خبز من كيس كبير من الورق وجلسوا على حافة البنك واضعين أطباقهم على الخشب التّرِب. كان هناك عصير برتقال مركز في كؤوس من البلاستيك. ملأ كل واحد كأسه. لم يتكلم الرجال إلا قليلا، وكأنهم يوفرون جهدهم. حط بعض الذباب العنيد على الأكل وتنقل داخل الكؤوس، ومن حين إلى آخر، كانت تسمع قهقهة تجاوبا مع نكتة معزولة.

لبث دانيال يأكل في حياء، وهو يلقي نظرات نحو الآخرين.

لاحظ أن كل الرجال دبغت جلودهم الشمس، فيما جباههم بيضاء بسبب الخوذات؛ لاحظ أيديهم المفرطحة الخشنة من كثرة استعمال الأدوات التي تمسك الآن ملاعق، أيدٍ تقطع الخبز وكأنها ترحي الحصى. تمنّى لو كان ليديه تلك الصلابة، وله ذلك الثقل. اعتراه خجل من طراوة يديه، يديه اللتين خلقتا للضغط على أزرار، وتسجيل أرقام على سبورة. تمنى لو يصل إلى موعده مع صبرينا لاف في هيئة أكثر رجولة، وأكبر ضخامة ونضجا، لو يأتيها في هيئة أكثر وقارا وثقة في النفس. رفع كأسه ليشرب فرفع ألدو كأسه أيضا قائلا:

«على نخب زوال بكارتك، يا صاح !».

ضحك دانيال. سأل السائق:

«قضي الأمر؟».

- «ليس بعد»، قال ألدو. سيُقضى في بوينس آيرس.

- «حقًا؟ برافو»، قال الأسمراني. قام وصاح في الجميع بصوت مخمور أجش: «الرفيق الحاضر بيننا... ما اسمك، يا صاح؟».

- دانيال.

- الرفيق دانيال ذاهب إلى بوينس آيرس لإزالة بكارته، يجب أن نتمنى له حظا سعيدا، يا جماعة !

ندّ تصفيق وتصفير وأطلق أحدهم صيحة سابوكاي[1] حارة. عندما رأى دانيال الأنظار كلها منصبة عليه، احمر وجهه خجلا، وأوشك الدمع أن ينهل من عينيه. ومن حسن حظه، أن الجلبة

(1) sapucay صيحة حرب غوارانية صارت الآن تعبيرا عن الفرحة.

توقفت من تلقاء نفسها، وسرعان ما نُسي أمره، خصوصا أن الرجال مدعوون إلى ترك مقاعدهم لعملة آخرين قادمين من أماكن أخرى من الطريق التي يقع تعبيدها. نهضوا فودّع دانيال ألدو الذي انصرف للمساعدة على إفراغ الشاحنة.

سار وهو يتنفس بصعوبة تحت طبقة ثقيلة من سحب تتراكم في السماء، ورأسه ملآن بأصداء الضجة. وكل تلك الوجوه التي حيّته. كان يحس، في فرح غامر، أنه لا يزال يسمع كل تلك الجلبة. ويشعر رغم ذلك بشيء يضايقه، شيء أشبه بالإهانة، شعوره بأنه رجل دون أولئك الرجال، أو إذاعة عذريّته على رؤوس الملأ، وكأن عاصفة التصفيق والتصفير، وخاصة الصيحة الأخيرة، لم تكن سوى سخرية، ضحكة عالية من قلة خبرته، ومن شبابه وهشاشته. لم يعد يعرف في من يثق، فإن كان السمين كربوني قدم له جليل النصح، فقد أخطأ حين قال إن كل البراغوائيين منحرفون، بما أن ألدو، وهو من أسونثيون، ساعده. تذكر أيضا أنه، قبل يومين، لم يكن يتصور أن يسرقه جنديان بالزي العسكري، جنديان يشبهان أخاه في كل شيء عندما كان يؤدي الخدمة العسكرية ويسرّح في إجازة. في كوروغوازو كان يعرف في من يثق، قد لا يعرف الناس جميعا، ربما، ولكن الوجوه كانت على الأقل أليفة، ألفة الشوارع الهادئة. أما هنا، وسط العدم، فكل الوجوه مجهولة، جافية، وتقترب فجأة، في سرعة الطريق، لتصبح ضخمة مهددة، كما في حلم الحوت الملفوظ بأعلى الشجرة، حين أمكن له أن يرى فجأة إحدى عينيه، ولم يتمكن من تمييز جسده عن جذور الشجرة وفروعها.

(8)

بعد أن سار خائر العزم طوال ساعتين، وصل إلى جسر تمر العربات فيه في الاتجاهين، لأن المسلك الثاني بصدد البناء. وعلى كل حافة رجل يرفع علما أحمر لينظم بالتناوب مرور العربات. كل خمس دقائق يتكون طابور سيارات تنتظر دورها، وكان دانيال يمر بها لعله يعلق بنظرة السائقين وهو يدير إبهامه ناحية الجنوب. منهم من لم يُرعِه نظرة، ومنهم من يردّ عليه بالإشارة أنه سيتوقف قريبا من هنا أو ليس لديه مكان شاغر، ومنهم من يقول له صراحة لا.

عندما تحرك الطابور ولم يقبل أحد بنقله، اعتراه من ذلك نوع من المتعة وعذّب ذاته بعدّ الرافضين. أدرك أن ما يخشاه في الواقع هو أن يقع على شخص يقوده رأسا إلى بوينس آيرس، ولا يترك له خيارا آخر غير أن يستجمع شجاعته ويذهب لقضاء الليلة مع صبرينا لاف.

غادر الطريق لينحدر إلى حافة جدول وجلس على العشب متسائلا ما إذا كان أحرى به أن يعود القهقرى، أن يتجه إلى الناحية الأخرى من الجسر ويوقف السيارات المتجهة إلى الشمال؛ ربما يوصله أحدهم قرب الجسر الآخر، ويمر الطوف بعد الظهر، فيكون باستطاعته منذ هذا المساء، لم لا، أن يعود إلى بيته.

انبطح. مر أمام ناظريه سرب من النمل الأسود، محمّلا بشتلات عشب، ومزق ورق ذات أحجام وأطوال مختلفة، وأزهار بالغة الصغر، وسيقان نبت؛ قدّر أن ذلك الجهد، بالمقارنة، يعادل حمل رجلٍ شجرةً على كاهله. مرة أخرى، أحس أنه في عالم آخر، مخالفا لعالم الطريق، عالم بنسب أخرى، أكثر سعة ومجهريّ في الوقت ذاته، شسوع يتكون من أشياء بالغة الصغر، كهذا النمل الذي لا يُرى من السيارة. بدا له أن وجوده على حافة الطريق يشبه من وقع من سفينة في عرض البحر، يغوص في وسط آخر أساسه البطء ومن الصعب استعادة الوضع السابق وسرعته النفاثة. أحس فجأة بأنفاس قرب أذنه، فإذا هو كلب أسود، لابرادور. قوم جذعه وجعل يداعبه. ظل الكلب هادئا حذوه.

«صُمبرا !» صاح رجل من الطريق مناديا كلبه. «صمبرا !».

كفّ دانيال عن مداعبته لكي يعود إلى صاحبه، ولكن الكلب لم يتحرك. عندئذ قام، وصعد السطح المائل يتبعه الكلب في اللحظة التي كان فيها صاحبه نازلا، فالتقيا في منتصف المسافة.

«سئم البقاء في هذه السيارة ولا يريد أن يركب ثانية»، قال الرجل الذي ابيضّ شعره وقد يكون في الخمسين. «نمضي، صمبرا؟».

ولكن الكلب رفض أنّ يتحرك قيد أنملة ما لم يتحرك دانيال، ما أثار ضحك الفتى واضطره إلى السير حتى السيارة الرابضة في الطابور لكي يرافقه. نظر الرجل إلى كلبه مذهولا وهو يضحك أيضا، ثم أبصر جراب دانيال فسأله:

«أنت ذاهب إلى بوينس آيرس؟.

- أجل.

- تبحث عن سيارة؟

- نعم. أحاول إيقاف سيارة منذ ساعات بلا جدوى.

- إذن، أقرّبك إن شئت.

قبل دانيال وركب الرينو العائلية جنب السائق. وصعد الكلب من الخلف. قدّم الرجل نفسه، اسمه سيزار غالياردي وهو عائد من ضيعته قرب كولون. تململ الطابور فاجتازا الجسر.

«وأنت، ما اسمك؟

- دانيال مونتيرو، أسكن في كوروغوازو.

- أنت ذاهب لزيارة بوينس آيرس؟

- تقريبا، نعم.

- ما معنى «تقريبا»؟ ستزور من؟

- بنتا.

- آه ! هي ذي المسألة. من تكون؟

- بنت تجري مسابقة في التلفزيون، والجائزة قضاء ليلة معها.

- لا تقل لي إنك فزت في مسابقة صبرينا لاف.

- «بلى»، قال دانيال، وهو سعيد بأن شخصا ما يعرفها.

- لا أصدق. أفزت حقا؟

- أجل.

- أتعرف أن لي أصدقاء اتصلوا بهذه المسابقة... هيا، لن أخفي عنك، أنا أيضا اتصلت. ما هو الرقم الصحيح؟

.2756 -

- بالضبط! وأنت الذي يحوزه، يا للصدفة! يبدو أن قرابة خمسين ألف شخص اتصلوا. أتدري المبلغ الذي يمثله ذلك؟ احسب: الدقيقة على الرقم 0600 ثمنها أربعة بيسوس، والصوت المسجل يدوم خمس دقائق لكي يشرحوا لك كل شيء، ويأخذوا اسمك وعنوانك ويعطوك رقما، اضرب هذا في خمسين ألفا وتصور الربح بالدولار.

- «هذا ما تتقاضاه صبرينا لاف؟» - سأل دانيال.

- كلا، إنه لفائدة منتجي البرنامج. من أدراني كم يعطونها».

كان غالياردي يسوق بسرعة، على المسلك اليسار لتجاوز الشاحنات ولا يعود إلى الطابور إلا حينما تهاجمه السيارات القادمة بتنبيهات ضوئية ملحاحة. ما جعل دانيال يحس بالضيق.

«كم عمرك؟

- ثمانية عشر.

- طفل. وكيف جرى ذلك؟ اتصلت بالهاتف فأعطوك كل التعليمات، متى تذهب، وكل ذلك؟

- نعم. أعطيت اسمي فتثبتوا أني أنا الفائز بالفعل. بعدها أعطوني الساعة واليوم ورقم الغرفة.

- متى سيتم ذلك؟

- الليلة، في الساعة الحادية عشرة.

- اليوم؟».

بدا أن الاستغراب دفعه إلى السياقة بأكثر سرعة. تردد دانيال في ربط حزام الأمان مخافة نَبْزه. فكان أثناء المناورات الخطرة يتشبث بمقبض الباب.

«لا تخف، خمسة عشر عاما وأنا أستعمل هذه الطريق مرة في الأسبوع».

رأى دانيال العالم يمر بسرعة فائقة. كان قد غير السلّم من جديد وبشكل مباغت، منتقلا من مسرب النمل البالغ الصغر إلى كيلومترات تجري تحت قدميه مثل شريط أسود. وفي الخلف يهتز الكلب في أنين خافت وهو لا يفهم أي يد خفية تقبض عليه في المنعرجات وعند تسارع أو فرملة.

«لا شيء حقيقيا غير البنات. باستثناء البنات، لا يوجد شيء مهم في الحياة. النقود، نعم، طبعا؛ الأطفال كذلك، ولكن فيما بعد، ينصرفون في حال سبيلهم، وماذا يتبقى لك؟ البنات. حتى وأنت شيخ، يمكنك أن تنكح؛ ما يروجونه عن العِنّة، مسألة نسبية جدا، بالنسبة إلي على أية حال، الحقيقة الحق هي أنك ما دمت تستعمله فهو شغّال. هكذا».

هبط الليل. لمح دانيال عن بعد أضواء جسر ضخم. لا شك أنها زارات.

«أنا بدأت مبكرا، أردف غالياردي. في مثل سنك، كانت لي صديقة لها جسد بيتّي باج[1] - بنت رائعة، من أوليات من ظهرن

(1) عارضة أزياء أمريكية شهيرة، 1923 - 2008.

عاريات في المجلات في تلك الفترة. صديقتي كانت سمراء صغيرة، ذات هيئة قد تبعث على الخوف، ولكن كان لها جسد بيتّـي باج، زد على ذلك تسريحة الشعر نفسها. لم تكن تفهم لماذا آتيها دائما من خلف، ذاك لأني أريد أن أتخيل أن بيتّـي باج في عريها التام هي التي ألتحم بها، كأني أزلت رأس صديقتي وعوضته بمن كانت تثير إعجابي، لأن من جهة الظهر سيان، كل شيء يتم في الخيال، أتفهم، ما دامت لا تلتفت، بطبيعة الحال، لذلك كنت أطلب منها أن تنظر أمامها، تصور، لو نظرت إلي، فقل على التخيلات السلام. كان ذلك يتم دائما في شقق فارغة إذ كان لي صديق يعمل في شركة عقارية، وكان لي نسخ من مفاتيح الشقق التي يتعهدها. كلما جاء مع زبون لزيارة الشقة يضغط على الجرس ثلاث مرات. رنتان طويلتان ثم رنة قصيرة كإشارة لي في حال وجودي في الشقة، وهو ما يمنحنا الوقت، أثناء صعوده، كي نختفي في خزانة الملابس. تصور أننا، في أكثر من مرة، واصلنا داخلها ونحن نكاد نختنق. كان لا بدّ من إغلاق الباب من الداخل لأن الناس أحيانا يريدون فتح الخزانة ليروا ترتيب رفوفها».

عن بعد، في الأفق، لمحا وميضا. مرا أمام مركز شرطة المرور فخفّض غالياردي السرعة قليلا. مر الكلب إلى الأمام وأقعى بينهما كمسافر ثالث.

«يعرف جيدا أنه، بعد مركز الشرطة، يمكن أن يأتي إلى المقعد الأمامي. نعبر الجسر وأتركك تسوق، صمبرا، اتفقنا؟»، -قال وهو يداعب الكلب ويقهقه ضاحكا.

وعاد الحديث إلى صبرينا لاف.

«هذه البنت إلهة، كل شيء فيها رائع، ما الذي يمكن ألا أفعله معها. اطلب منها أن تؤدي لك الحنجرة العميقة. كم أحسدك، تشي، كم أحسدك !».

كان دانيال يضحك.

«المزعج مع النساء هو أنك إذا تعلقت بهن حد التصاقهن بجلدك ضعت. أنا ورثت هذا من أبي الذي كان يراود البنات كامل اليوم، كان يعيش بعض الوقت في البرازيل وبعض الوقت في الأرجنتين. عندما كان ينازع من أثر السرطان وهو في الستين، جاءه راهب من أجل المسحة القصوى[1] فأراد أن يعترف. قال له: «أبي، لقد نكحت البيضاوات والسوداوات أيضا». سأله الراهب: «وأنت تبدي الندم على ذلك يا ابني؟» فقال: «تقريبا، ولكن ما ندمت عليه حقا هو أني لم أنكح صهباوات». قال ذلك فعلا. ورواه لي عمي يوم زفافي. الطريف أني تزوجت صهباء دون أن يكون لي علم بالحكاية».

بعد مفرق طرق زارات، توقفت حركة المرور فجأة.

«ما هذه الفوضى؟»

لم يتحركا. لاح أمامهما دخان أسود تدفعه الريح بشكل مائل. كان ثَمّ سيارات ومدرعات شرطة.

«تعال ننظر»، قال غالياردي.

نزلا وسارا حتى الموضع الذي كان فيه أعوان الأمن يلبسون أزياء وخوذات حماية ويتسلحون بالبنادق ويمسكون بالمقامع. وعلى

(1) مَسْحة بالزيت المقدّس على جبهة المريض ويديه.

مسافة أبعد بدا خليط من الناس خلف جذوع أشجار وعجلات مطاطية تحترق على الإسفلت، نسوة ورجال بعصي، شبان عراة الصدور، يغطون وجوههم بألفعة وأقمصة قصيرة.

- ماذا يحدث أيها العريف؟

- موظفو بلدية زارات. قطعوا الطريق وسنتولى تشتيتهم.

- ممّ يشتكون؟

- هذا ليس من شأن القوات المسلحة.

بدأت الحجارة، المقذوفة من الحاجز تنهمر من كل جانب. مصيبة الأرض والمدرعات والدروع والسيارات. أمسك غالياردي دانيال من ذراعه وعادا معا إلى السيارة. صعد غاضبا.

«عبيد قذرون. ينبغي أن يصابوا في الصميم. لاحظ أنهم يمكن أن يموتوا. أكيد أن منهم، في الجملة، من ينتمون إلى عائلة واحدة يتنازعون بالحجارة والرصاص المطاطي، وفي الأحد الموالي تجدهم يأكلون الرافيولي عند أمهم، يشتمون بعضهم بعضا قليلا، يظهرون لبعضهم بعضا كدماتهم، فتطلب منهم أمهم أن يقبلوا بعضهم بعضا وكأن شيئا لم يحدث».

عاد غالياردي أدراجه.

«سنمر عبر طريق كمبانا. لا تشغل بالك يا صغيري، ستصل في الموعد».

ضغط على دواسة البنزين وتجاوز السيارات الأخرى بنفاد صبر.

«هنا، كل شيء لكرة القدم وعصابات الهوليغان. يقال إن

الأرجنتيني يريد أن يكون له أصدقاء لأنه لا يحب أن يبقى وحيدا؛ هراء، إذا كان الأرجنتيني بحاجة إلى الآخرين فلكي يتعارك فقط. أتسمعني؟».

- «نعم»، قال دانيال.

- فلماذا إذن تنظر إلى ناحية أخرى؟

- أتأمل المشاهد الطبيعية. هذه أول مرة أمرّ فيها من هنا.

كانت الطريق تمتد بين سكة حديد وقرية ذات بناءات واطئة، وطابور السيارات يتقدم قليلا ثم يتوقف، والليل قد هبط. نفد صبر غالياردي فجعل يقود سيارته على حافة الطريق، وكان آخرون قد قاموا بالشيء نفسه مثيرين غبارا مصفرّا لا يُرى عبره غير أضواء السيارات. وريح عاصفة ترفع أوراقَ أشجارٍ ميتةً وورق جرائد. ورائحة لاذعة لنفايات محترقة. أبصر دانيال طيفا ضخما يقترب مزودا في مقدمته بمصباح: كان ذاك هو القطار، مثل شبح وسط سديم الأغبرة.

رفعا زجاج النافذتين لكي لا تنفذ الرائحة إلى السيارة. فجأة كبح غالياردي الفرامل بشدة. كاد أن يدهس امرأة وأطفالها وهم يسيرون حاملين صررهم وقد أعشت دوامات الغبار أبصارهم. ضغط على الزمّور إلى أن تنحّوا وفسحوا له الطريق كي يمرّ.

«هذا البلد يسير مباشرة نحو الحائط يا صغيري، لا شيء يجدي، ينبغي محو كل شيء والاستئناف من الصفر».

(9)

في الطريق السريعة، قال غالياردي إنه سيسلك ناحية الخروج إلى تاليس وسوف يتركه في محطة الباص.

- عندك نقود؟

- «لا»، - قال دانيال محرجا.

- طيب، لا تشغل بالك، سنسوي الأمر احتفالا بموعدك مع صبرينا لاف.

في نقطة الاستخلاص، دفع غالياردي بورقة ذات خمسة بيسوس وسلم ما تبقى منها لدانيال.

«بهذا يمكن أن تصل»، قال له. «ستركب الباص رقم 60 وتطلب من السائق أن يدلك على محطة أزكيوياغا، هناك ينبغي أن تنزل».

كانت القطرات الأولى قد بدأت تهطل. توقف غالياردي في الموضع الذي سيحيد عنه، أراه محطة الباص وتمنى له حظا سعيدا. شكره دانيال، ربّت على الكلب ونزل. كانت الساعة الثامنة والنصف ليلا. سار حتى المأوى. لم يكن أحدٌ ينتظر الباص سواه. كان للمكان شعشعة اخضرار أضواء الطريق السريعة. السيارات تمر كعصف الريح. «مرة أخرى على حافة الطريق»، فكر دانيال. مدّ البصر بعيدا

فلم يلح له أي باص، فجلس. على حافة الرصيف، كانت الريح تراكم غبارا قذرا من هشيم الدرّاءات والمصابيح المكسرة وأكياس البوليتين وزخارف العجلات وواقيات الصدمات والصفائح المفلطحة والكراتين. فتشكّل كلها طميا واحدا خلّفه مدّ حركة المرور وجَزرها، رملا لا يتكون من حجارة وحصى بل من سيارات؛ ترسبات نجمت عن جملة حوادث يحس دانيال أن أبويه، في وجه من الوجوه، من ضمنها.

ازداد المطر انهمارا، ونزل في شكل زخات لوثت قدميه، والباص لم يأت بعد. أدرك دانيال أنه سيزداد ابتلالا لأن الملاذ لم يكن له سوى السقف، ولا وجود لجدارين جانبيين، والمطر، بفعل الريح، ينهال بشكل مائل. أخرج الكيس الذي سلمه إياه عجوز الطوف ووضع فيه أشياءه كي تبقى جافة.

عندما أبصر الباص 60، كان مبللا حتى الجلد، أشار بذراعه وكفه مرفوعة، فداخله إحساس بأن إيقاف باص بمثل هذا الحجم ملآن بالركاب هو نوع من الغطرسة.

دامت الرحلة حوالي السّاعة ولكنها بدت له أطول لأنه لم يظفر بمكان للجلوس وظل قائما، مرتجفا من شدة البرد تحت ثيابه المبللة، مرتعبا ومحموما قليلا، يدخل شيئا فشيئا مدينة تبدو بلا نهاية، يدير في رأسه ويعيد مختلف الأوجه التي يمكن أن يتخذها لقاؤه مع صبرينا لاف، وهو يتابع تعاقب الأنهج المظلمة والمجهولة، فيما الباص يمتلئ بجمهرة صاخبة تتجه إلى وسط المدينة لقضاء ليلة السبت. تخيلها وهي ترمق دخوله إلى جناحها وتلغي الموعد لأنه صغير السن، تخيّل أنه سوف

يترك تلك الصبرينا لاف نفسها مرهقة، مغتبطة على السرير مع بسمة انتشاء، وأنهم سيصورونه عند قدومه، وأنهم لا يريدون أن يصدقوا أنه هو، وأنه سيعانقها دون أن يعرف كيف يتصرف. من حين إلى آخر كان يسأل الركاب ما إذا كان نهج أزكويناغا لا يزال بعيدا وكانوا يجيبونه بنعم. بالنسبة إليه، كان ذلك هو الشارع الوحيد الذي يحمل اسما، أما البقية فما هي سوى متاهة ضبابية من أثر الأضواء والنيون يراها عبر المطر المنساب جداول على زجاج الباص. أبصر أناسا يدخلون قاعة سينما، في مكان اسمه بلغرانو، والباص يفرغ حمولته شيئا فشيئا، قبل أن ينعطف في نهج ضيق يكاد لا ينتهي، نهج ماريا كامبوس؛ بعدها قام بعض الركاب في وقت واحد بإشارة الصليب، عند المرور أمام كنيسة سان أوغستين. تملكته رهبة. ولما أمكن له الجلوس، عاد يسترشد من جديد. عليه أن ينزل في المحطة القادمة.

كانت الساعة العاشرة والنصف ليلا والمطر يكاد يتوقف. عند أحد المفترقات لمح يافطة «أزكويناغا» فنزل النهج حتى الرقم 2000 عابرا شارع لاس هيراس. رأى على طول الشارع جدار مقبرة ريكوليتا الضخم. سار بجانب شرفة خمارة رائجة تضج بالحضور وبالموسيقى حتى بلغ بابا كتب عليه «كيوبس. فندق ترانزيت»، حيث شلال مضاء يحاذي باب خروج مأوى سيارات. دخل محرجا، وهو يصرّ أسنانه ويغالب نفسه على أن يفعل ما لا يعلم، لأن رغبته مازجتها طبقة من الخوف الغامض كانت تعصر أمعاءه.

خلف الشباك ذي الزجاج المدخن رمقه البواب بنظرة ارتياب:

– ما حاجتك؟

- أنا الفائز في مسابقة صبرينا لاف.

طلب منه الرجل بطاقة هوية، تثبت من شيء كان مدونا على ورقة وأجرى مكالمة من الهاتف الداخلي.

«الإنتاج سينزل حالا».

على الجدران الجانبية المغطاة بالورق الملصق مرايا ضخمة. ظن دانيال من نظرة بطرف عينه أنه أبصر شخصا. التفت فرأى نفسه على صفحة مرآة، بلحية يومين، ووجه متعب وغير واثق، وقد تبلل شعره وسالت قطرة من أنفه، والشعر مبلل، والأنف تنحدر منه قطرة، والثياب ندية وهو ماسك كيسه تحت ذراعه. حاول أن يسوي بسرعة مظهره، فعدل جرابه وسرح شعره إلى الخلف وخلع سترة الجينز. كان القميص القصير ملتصقا بجسده كالحمى.

أقبل رجل قميء، قصير الشعر، يلبس جاكتة في لون الخردل مشمرة الكمين.

«كيف حالك يا بطل؟» قال لدانيال وهو يربت على خده. «ماذا جرى لك؟ هل تعرضت للمطر؟».

- نعم. هل يمكن أن أستحم في مكان ما قبل ملاقاة صبرينا؟ لقد وصلت توّا و...

- ثَمّ مشكل صغير. هل تستطيع أن تأتي يوم الاثنين؟ لأننا، أشرح لك، تأخرنا كثيرا، وصبرينا لا تزال بصدد التمثيل.

- وغدا، غير ممكن؟

- لا، يوم الأحد لا، هي شديدة الإيمان.

- ذلك أني جئت من مكان بعيد...

- من أجل هذا، يوم الاثنين ستكون أكثر نشاطا، أليس كذلك؟ نفس الشيء، نفس الجناح، نفس الوقت. وسوّ مظهرك قليلا، صبرينا ملكة، أنت تعرف. جئها بالورد، بالبعض منه.

ثم قاده الرجل إلى الباب.

مشى دانيال مضطرب البال حتى ساحة، فجلس على مقعد دون أن يهتم بكونه مبللا. كان المطر قد انقطع. فكر أنه ما كان عليه أن يقبل طرده بمثل تلك السهولة، كان عليه أن يناقش أكثر. وها هو الآن مضطر لانتظار يوم الاثنين، ثم إنه لم يتوقع أن يكون في موقف الباحث عن غرفة هذه الليلة، في مثل هذا الوقت المتأخر. ارتدى سترته واكتشف أن في جيوبها رملا؛ تذكر الشاحنة التي أقلته هذا الصباح، وألدو المغموم حتى النصف؛ تذكر الغداء. كان جائعا. أخرج عنوان صديق أخيه، وقد شوهه المطر ولكنه لا يزال مقروءا. بقي له بعض النقود لركوب الباص. عاد إلى شارع لاس هيراس، وسأل عن وجهته في كشك، فنصحوه بركوب الباص 37 والنزول قبل مفرق شارع سان خوان.

في أقل من نصف ساعة، وبعد رحلة في باص نصفه فارغ وقطعِ مسافة بنحو بضع مئات من الأمتار، ألفى نفسه أمام باب عمارة، في 900 شارع أنتري ريوس. ضغط جرس الهاتف الداخلي، وإذا صوت رجل يصرخ: «أنا نازل». انتظر. سمع قهقهة ورأى قدوم ثلاثة أشخاص متنكرين، أسد، هاوايلي، وغواص يبدو أنه امرأة. ضغطوا مرارا على زر الهاتف الداخلي لأنهم لم يتلقوا ردّا من أحد،

حتى سمعوا صوتا يقول: «إنهما نازلان». أضاء بهو العمارة وإذا شابان يرتديان ثيابا من الجلد على طريقة السادو مازو[1] يخرجان من المصعد؛ أحدهما يمشي على أربع، والثاني يمسكه بزمام. كان الثلاثة الآخرون خارج العمارة يضحكون. بدا السادو مازو، الذي على أربع بكمامة وكرية حمراء في الفم، نهبا لغلمة حيوانية. لاحظ فجأة دانيال فهب قائما. تخلى عن مهزلته واكتسى ملامحَه جدّ وحرج. وبحركات من نفد صبره، أشار إلى الآخر بترك الزمام وسحب الكمامة. فتح الباب وحاول الابتسام وهو يحيّي المتنكرين.

«اصعدوا، سألتحق بكم في الحين، قال وهو يترقب اختفاءهم كي يتوجه إلى دانيال. ماذا تفعل هنا يا فرخ؟

- أردت أن أعرف هل يمكن أن أنام عندك الليلة. وصلت لتوي و...

- ألا تستطيع أن تُعلم؟

- ليس لك هاتف.

- جئت في أوج حفلة. حفلة تنكرية. هذا تنكر، قال وهو يشدّ صدرية الجلد.

- طيب. فقط بضع ليال يا راميرو. بعدها أذهب في حالي.

- لا يمكن أن تبقى. اعذرني ولكن...

- إذن، هل يمكنك أن تردّ المائة بيسوس التي تدين بها لي مقابل الدراجة النارية؟ أنا محتاج إليها بصفة عاجلة، قال دانيال.

---

(1) شخص يجمع بين السادية والمازوخية.

- ستعود إلى كوروغوازو وتحكي للناس أجمعين أني أمشي على أربع، مع هذه في فمي، وأنا لابس بهذا الشكل.
- لن أقول شيئا إذا كنت لا تريد ولكن أعطني المائة بيسوس.
- هذا ابتزاز؟ قال راميرو غاضبا.
- كلا، قال دانيال، لماذا سأقوم بالابتزاز؟
- لأنك ستعود وتحكي لكل الناس أنك رأيتني في هذه الهيئة.
- وما العيب فيها؟ ألم تقل لي إن هذا تنكّر؟
- أجل، ولكن عندنا، يمكن أن يتصوروا أي شيء.
- حسنا. لن أقول شيئا، أوكي. ما أطلبه منك هو أن تعطيني مائة بيسوس.
- أرأيت. إنه ابتزاز.
- طيب، إذا كان هذا يرضيك، فهو ابتزاز. أعطني مائة بيسوس ولن أقول شيئا».

تردد راميرو، ثم تركه يدخل وركبا المصعد. أغلق الباب المشبّك بعنف، ضغط على زر الطابق الخامس عشر وقال:

- أسكن مع ولد، تعرف، أفضل أن أقوله لك لأنّ...
- وما العيب؟
- ما أردت قوله إني أخرج مع ولد.
- تخرج إلى أين؟
- ولا أي مكان يا دانيال، قال راميرو وهو يحاول المحافظة على هدوئه. أعيش عيشة الأزواج مع ولد. أحب الذكور. أنا مثليّ.

لم يحر دانيال جوابا فثبت نظره في لوحة الأزرار.

«آخر مرة ركبت فيها المصعد، كان في فندق بارانيا، كان عمري إحدى عشرة سنة.

- دانيال، لو تحكي أي شيء في كوروغوازو وينتهي إلى علم والدي فسوف تلقي بكل شيء في الماء، لأن ذلك قد يسوؤهما كثيرا.

- لا عليك، قال دانيال. لن أقول شيئا.

- حتى لأخيك.

- اتفقنا»، أكد له، وتابع عبر تقاطعات الباب المشبك مرور الطوابق واحدا واحدا، وكأن الوقت، كأسطوانة مشروخة، يكرر صورة اللحظة نفسها.

(10)

دخلا وسط جلبة شقة مملوءة بالمتنكرين. كان هناك ساحرات وغجريات وناجون من الغرق، وعرب وراهبات، ومصارعو ثيران، وآخرون كثيرون يستعصون عن التسمية، وقياصرة، وأرامل، وغاتوبيلات[1] ودببة. وضع دانيال أشياءه في ركن وتابع بنظره ذلك التهيج، وهو في ضيق وفي تعب لا يدري ماذا يفعل بيديه. قال له روميرو:

«ليس لي نقود هنا، ولكن غدا سأعطيك شيكا يمكن أن تصرفه يوم الاثنين. إذا أردت أن تبقى للنوم، فابق. واذهب إذن للرقص مع الآخرين. يوجد هنا رفاق من الكلية، ومن فرقة التمثيل، وقد عرفتهم من خلال الرقص... ليس كلهم يعرف بعضه بعضا، فلا داعي إذن لأن تحس بالحرج.

- حسنا.

- دانيال، في كوروغوازو، قل لهم إني أعمل كالمجنون، هه؟».

دنا منهما عربي وأرملة وهوايلي وقرروا أن دانيال لا يمكن أن يبقى دون لباس تنكري، ولا بدّ من إيجاد شيء ما. حاول الصمود

(1) Gatubela أو Catwoman: المرأة القطة، التي تظهر في بعض أفلام باتمان.

ولكنهم جرّوه، عبر الزحام وأبخرة الماريخوانا القادمة من المطبخ، إلى غرفة شاغرة. فتشوا في رفوفها، وألبسوه قبعة من القش وقميصا باليا ربطوه إلى وسطه وسروالا مهدّبا تحت الركبة ومداس فلاح، قنّعوه في ما يمكن أن يبدو مثل فزاعة عصافير دوريّ، رغم أنه كان يحس أنه ممثل تلفزيون ثانوي يلعب دور الكرابيين. لم يكن يضحك إلا باقتضاب. أدخلوا عصا مكنسة في كمي قميصه لكي تظل ذراعاه في وضع أفقي وتركوه في ذلك الوضع مصلوبا في ممر، إلى أن تخلص من العصا كي يستطيع المشي بلا مانع ويعود إلى قاعة الجلوس، أكثر حرجا من ذي قبل؛ ومن دون أن يتثبت ما إذا كانوا ينظرون إليه أم لا، اتجه إلى نضد عليه بيرة ولحم خنزير.

تابع بنظره من يرقص ومن يجلس على الأرض ومن يدخل ويخرج إلى الشرفة. دنا منه مقطوعُ هامةٍ يحمل رأسه من شعره وجعل يزدرد الخبز وشرائح لحم الخنزير من فتحة في صدره. ثم أطلت حواء في بيكيني، وعلى عانتها ورقة كرم ونهداها مستوران بشكل استراتيجي بذوائب برّوكتها الطويلة الشقراء. نظرت إلى دانيال فنظر بدوره إليها وهو لا يستطيع أن يمنع عينيه من تملي استدارات وركيها.

«يا خازن الخمور، من فضلك، هل لك أن تسقيني بيرة؟

- لمَ خازن الخمور هذه؟ سأل دانيال وهو يناولها زجاجة.

- بما أنك لا تغادر مائدة الطعام، حسبت أنك خازن الخمور... فيمَ أنت متنكر؟

- لا أدري بالضبط. استنبطوا لي كسوة. ليتهم ستروا رأسي أيضا.

- أحيانا يُظهر التنكر أكثر مما يخفي، قالت. يوحي من نحن، أو

ما نتصور أن نكون، أو ما نخاف أن نكون، أو ما نريد أن نكون دون أن نجرؤ عليه.

- كل هذا؟

- أجل، قالت.

- حتى وإن قنّعك الآخرون؟

- نعم. في رأيك، فيمَ قنّعوك؟

- في هيئة قرويّ أبله».

ضحكا معا. ثم واصلت نظريتها:

«لا شك أنهم اختاروا هذا الزي التنكري لأنك تحس أنكِ كذلك، وبالتالي، أنت الذي سبّبه إذن في وجه من الوجوه. من أين قدمت؟».

قال لها دانيال إنه من كوروغوازو. تحدثا برهة. حكى لها أنه جاء عن طريق النقل الإيقافي، وأنه وصل منذ حين، وأنه رغم زيارته سابقا لبوينس آيرس صحبة أبويه حينما كان طفلا، يحس أنه يراها لأول مرة لأنه لا يتذكر شيئا. كانت تنصت إليه باهتمام، مؤيدة أو قاضمة شفتيها، وهي تدفع عنها الذين يقتربون من البوفيه وينفحونها ثناءً. قيصر نصف أصلع قال لها:

«ألا تريدين، عزيزتي حواء، أن أخلع ثوبي وأتحول إلى آدم لألعن معك الإنسانية؟.

- لا يا كبيري، لا تحلم. على أية حال، ألفت انتباهك أن آدم لو كان يشبهك لبقينا دائما في الجنة».

اسمها صوفيا. ولدت في لنكولن في مقاطعة بوينس آيرس.

روت لدانيال أنها التحقت حديثا بقسم علم الاجتماع، وأنها ذاهبة يوم الأحد رفقة صديقاتها في الكلية إلى معرض ريكوليتا للقيام بعمل في وضعه الحيّ. واقترحت عليه أن يرافقها.

«في الساعة الرابعة بعد الظهر، أمام كنيسة بيلار».

وافق دانيال، في نوع من القلق. فكر أن عليه التثبت أين يوجد هذا المكان، وهو يجهل أنه مر الليلةَ قريبا منه.

انصرفت حواء للرقص، فواصل شرب البيرة وهو لا يصدق هذا اللقاء، نسي في غمرة سعادته هيئة الفزاعة الحدودية التي كان عليها.

ذهب إلى المطبخ بحثا عن زجاجة آخرى فغمره من جديد شذا الماريخوانا العذب واللاذع. وقد جرى هنا همسٌ أن وقت عراف شالون حان، والتفتت الأنظار إلى شخص طويل الشعر، ذي شارب، وجسد ينتأ نصفه عن جلد دبّ، يدخن سيجارة حشيش سميكة وهو جالس مغمض العينين على مقعد عال.

«هل أزفت استشارة العراف ؟».

هزّ رأسه هزة مقتضبة وجذب نفَسًا من سيجارته. وقفت أمامه الفتاة المتنكرة في هيئة غواص، أنزلت قليلا سلسلة بدلة النيوبرين فقرب أذنه من قلبها. تمهّل قليلا ثم قال كأنه ينطق بحكمة صينية:

«لا تخشي السرطان بل القرش» وكانت الخاتمة مثل بداية حكاية أطفال: «في عمق البحر، توجد كنوز».

همس ملك لعبة الورق إلى دانيال:

«من قبل، كان هذا الدعيّ يضع يده على جبين الفتيات. أنا الذي اقترح عليه هذه التنويعة».

فتاة أخرى في هيئة عضو من أعضاء «آبّا» تقدمت وفكت بعض أزرار زيها الفيروزي. مال العراف على صدرها كأنه سينام عليه، أنصت مليا وقال دون أن ينسحب.

«قلبك يقول إن البرق يمزّق الليل. لن تبقي عذراء».

تنحت الفتاة مبتسمة وقالت: «هذا العراف يؤخّر».

كانت سجائر الحشيش تتنقل وسط القهقهات، جذب منها دانيال بضعة أنفاس. وواصلت نساء أخريات استشارة العراف ليتلقين جملا في شكل أقوال مأثورة ممزوجة باستطلاع البروج في المجلات. «سنة طيبة لغلال البحر»، قال لعروس بحر. ولغاتوبيلا: «التوازن كبرياء السنّور». وللراهبة: «الربّ لا ينتظرك». ولكن التنجيم الذي استغرق منه وقتا طويلا كان مع الغجرية التي رفعت كليا صدارتها وأقحمت فيها رأس العراف؛ فخرج منها مخنوق الأنفاس قائلا: «عطر الحياة يجد له طريقا. غيّري مزيل روائحك».

ولما حان دور الأولاد، قال لهم ألا داعي لفك أزرار قمصانهم لأن دقات قلوب الرجال أقوى يمكن سماعها عبر الألبسة. قال لقيصر: «قلبك يحلم بالخنجر». وللناجي من الغرق: «عنزتك ستكون أم أولادك». وعندما جاء دور دانيال، فحصه فحصا موجزا ونظر إليه وهو لا يكاد يفتح عينيه الحسيرتين وقال: «ارو كما ينبغي هذا الحصان».

بعد تنبؤات عراف شالون دارت نوبات أخرى من التيكيلا عقبت جولة الماريخوانا، وبدأ دانيال يركز عينيه طويلا في الأشياء، ويغيب بشكل متقطع، فيدرك أحيانا واقع ضوضاء الحفل وأحيانا يهوي في

مياه ذهنه المضطربة، حيث سرعة الأفكار ومنطقها البهلواني يجعلانه كمصاب بدوار البحر. كان يتناوب بين الحفل والدوامة الحميمة متنقلا في الشقة، متحدثا مع الناس، محاولا أن يُفهِمهم كلماته التي تتعقد كلما رام شرحها، وتنسرب من بين يديه دون أن يدري ما الذي دفع إليها. رأى شابا وفتاة مقبلين والشعر منفوش والثياب في فوضى ما أوحى له بأنهما كانا يمارسان الجنس. فكر لو أن الإنسان كان شبيها بالكلب الذي يظل عالقا بأنثاه برهة بعد السِّفاد، لجاء هذان الزوجان ملتصقين وكأنهما يرقصان التانغو، وسيكون أمرا عاديا أن يفتح لهما صاحب الدعوة الباب ويقول حين يراهما: «هذا من لطفكما أن قدِمتما رغم كل شيء !» وسيمشي الزوجان خلال الحفل وكأنهما يرقصان، ليس لإخفاء حال، بل للضرورة، وسوف توجد ملابس خاصة لهؤلاء الناس، من نوع عفريتة السياميين. بعضهم يمكن أن يكونوا ملتصقين من الخلف، فيأتون في هيئة قطارات الأطفال فتقول السيدات في همس: «في زمننا، لم نكن نتنقل ونحن ملتصقون من الخلف» أو «لا ينبغي الخلط بين ملتصقين ولابسي سراويل قصيرة»، ولكن بالرغم من أنهم مضطرون للدخول معا، فإن أحد الزوجين قد يكون غير مدعوّ، وقد يقول له أحد الحرس المكلفين بمنع الدخلاء من البقاء في الحفل: «أنت تعرف القاعدة، إذا انفصلت فعليك بالانصراف». أراد دانيال أن يشرح ذلك لقرصان كان يرمقه، وهو غارق في ضباب سكره، ولكن الأفكار أفلتت منه ونابت عنها أفكار أخرى، وغام كل شيء حوله فبدا بعيدا كمناظر الطريق هذا الصباح.

وسط هذا المخزن المخلوط بالحيوانات والبشر، رقص على

مقطوعات تعجبه، إلى أن رأى خياله في زجاج باب الشرفة، وهو يتلوى بطريقة غير محكمة، وبيده كأس فارغة، فاعتراه الخجل. خرج إلى الشرفة فأصابه دوار لرؤية السيارات المارة كلعب أسفل خمسة عشر طابقا؛ لم يكن قد رأى العالم قطّ من مثل ذلك العلوّ. بحث عن حواء - لم يعد يذكر اسمها - ومضى يفتح الأبواب؛ في إحدى الغرف، وجد أسدا يلتهم نهدي عروس بحر، وفي غرفة ثانية سوبرمان جالسا على مقعد المرحاض، وفي غرفة ثالثة عربيا نائما، وفي غرفة أخرى سمع ضجيجا، أشعل الضوء فإذا شرطية خلعت خوذتها تسحق في شبق امرأة مدنية. اتجه إلى المطبخ حيث كان أولئك الذين لا يزالون قادرين على الوقوف يديرون المتة. صادف راميرو فسأله هل رأى حواء. قال له إنها غادرت الشقة.

كانت الضحكات والأقنعة تدير رأسه. اضطر للجلوس. أسند قفاه إلى الجدار. أحس بتعب جغرافي: في رمشة عين، تراءت له كل الكيلومترات المقطوعة. أغمض عينيه، فإذا هو على الطوف، ولم يحدث بعد شيء، الرحلة كلها ستعاد من جديد. حاول أن يقوّم جذعه. وسط الضوضاء، خيّل إليه أنه رأى جنديا حليق الرأس فباغته الخوف، مثل لكمة. كان الجندي مدمى الجبين، ينظر إليه بهدوء وهو يناوله سكينه وسط الراقصين، ثم غاب في الزحام. أحس دانيال بأن شخصا يخضه، كان الهوايلي يحدثه بأمر في صراخ، ولكنه لم يفقه منه شيئا. في قاعة الجلوس، وعلى صوت القيثارة الناشز، راح المدعوون يثرثرون ويتدافعون. رآهم يتبادلون الركل وبعضهم يجذب بعضًا لإيقاعه على الأرض. وقع عليه أحدهم. رأى

دانيال عند قدميه الناجي من الغرق يتفصد عرقا، ويتلوى من شدة الضحك. ثم امّحى السقف وباقي الحفل وأحس أن شخصا يربت عل كتفه. ساعده أحدهم على النهوض وقاده إلى غرفة الاستحمام. كان روميرو. رآه يملأ المغسل ماء. غطّس فيه دانيال رأسه كله، وغاص في ذكرى زرقاء صامتة؛ كان يسبح تحت الماء بمسبح النادي الرياضي في كوروغوازو بقناعه الجديد، وهو يتابع ظله الهارب، وأشكال الضوء المسدسة تتموج في عمق الأزرق الفاتح، متأملا لأول مرة النساء عن قرب، وأجسادهن المخططة بأشعة الشمس، واستداراتهن المكتنزة، المتحررة من الجاذبية؛ يطوف حولهن ببطء، مكتشفا الأفخاذ في ارتجافها الطفيف الذي تحدثه السباحة، والنهود في عنصرها الطبيعي؛ كان في الثانية عشرة، يطفو ليسترجع أنفاسه على سطح يصخب بالأصوات والصرخات والجداجد، ثم يغوص ثانية بتلذذ في صمت هذا العالم الجديد الآخر، المصنوع من أوراك طرية، ويقتفي تلك الشعور التي تتثنى كالطحالب، يكتم نفَسه ويدور حول مراهقات في بيكيني زادهن أثر عدسة الماء روعة.

(11)

كانت الريح الندية تلطف عناء الانتظار تحت شمس الرابعة بعد الظهر، والناس يزدحمون في فناء كنيسة بيلار. أفاق دانيال بعد منتصف النهار وجسمه مخدر بسبب نومه على البلاطة الباردة لغرفة الاستحمام. كان مهدودا بالثملة، فلم يتناول غير فنجان قهوة في المطبخ، فيما كان روميرو يغسل الكؤوس ومنفضات السجائر.

- من هي صبرينا؟

- لماذا؟ - سأل دانيال.

- لأنك كنت تهذي كامل الليل وتردد «صبرينا، صبرينا».

- آه ! هي بنت قابلتها في كوروغوازو.

- على ذكرها، شاهدت في الأخبار أن الفيضان عمّ الأمكنة. إلى أين وصلت المياه؟

- حتى الطريق.

- وكيف حال أخيك؟

- لم يفلح في إيجاد عمل فتجده ينام كامل النهار.

- ورفيقته؟

- سيان. ينامان أسابيع بحالها. راميرو، هل تقرضني عشرة بيسوس؟ سنتفق على ما يلي: غدا، تحرر لي شيكا بتسعين بيسوس بدل مائة.

- أوكي.

- إذا خرجت، أطلبك عند الرجوع عن طريق الهاتف الداخلي؟

- لا، خذ شكة المفاتيح المعلقة جنب الباب. إلى أين أنت ذاهب؟

- لا أدري. سأقوم بجولة.

- خذ حذرك وأنت تمشي. لسنا في كوروغوازو. هنا، يفجرون رأسك قبل أن تقول أوف.

- وأنا أوقف السيارات في الطريق، تعرضت للسطو.

- أين؟

- في الطريق، قبل كولون.

- جئت عن طريق النقل الإيقافي؟

- إيه.

- لماذا تعجلت القدوم إلى بوينس آيرس؟

- لا لشيء، -ردّ دانيال وهو يهز كتفيه-. أما زالت الدراجة النارية عندك؟

- لا، بعتها في أسوأ حال. أُعطيت ثلث ما طلبت مني.

- وخلال رحلتك حتى هنا، هل تصرفت جيدا؟

- جيدا. قدتها برفق، قال راميرو. وصلت مجمّدا، فقد وافقت رحلتي شهر يوليو، وضعت جرائد تحت سترتي لأقطع الريح،

لن تتصور كيف كان ذلك. تخيل أن تصل هنا دون أن تعرف شيئا عن حركة المرور، وعن الشوارع. كانوا على وشك أن يدوسوني.

- والآن، هل تعودت على بوينس آيرس؟ - سأل دانيال.

- نعم، الآن، نعم.

- ألا تحن إلى موطنك؟

- بلى، طبعا، قال راميرو. ولكن الآن، كل ما أملك موجود هنا، لن أستطيع العودة أبدا. لن أستطيع أيضا العيش مع أبويّ. حتى العودة بمناسبة نويل تكلفني الكثير. هما يتكفلان بالإيجار والكلية لكي أدرس الهندسة الزراعية. كلما عدت هناك، أضطر لابتلاع بضع صفحات من مقرر الفلاحة وعلم النبات كي أوفق في الكذب عليهما. أحكي لهما شيئا أو شيئين ثم أغادر البيت وأنا أقول إني ما جئت هنا لكي أتحدث عن الكلية بل مع العائلة. إنه أمر فظيع.

- ماذا يحدث لو تقول الحقيقة؟

- لا أدري، كارثة حقيقية، أجاب راميرو ضاحكا. تخيل أبي: ابنه الأكبر، الذي سيكون مثالا لإخوته الصغار عند تخرجه مهندسا زراعيا، والذي سيسعده بالعمل قربه كخبير مرشد في الأراضي الفلاحية... سوف يخرّ بلا حراك. أتخيل أحيانا أني أقول له كل شيء عبر سي بي[1] شاحنته الصغيرة، على الموجة التي على صلة

(1) الحرفان الأولان لموجة المواطنين Citizen Band وهي ذبذبات موضوعة على ذمة النقل أفرادا ومؤسسات.

بكل المهندسين الزراعيين والبيطريين في كوروغوازو. تخيل أبي وهو يتحادث مساء مع سائقي الجرارات الذين يعيشون في مركبات تعج بصور البنات العاريات. وفجأة، يتوجه إليه أحدهم في راديو الشاحنة الصغيرة. وكل الناس تستمع.

- رفع راميرو عصا غسالة الماعون كأنها ميكروفون:

- العربة عشرة، العربة عشرة، العربة عشرة.

- هنا العربة عشرة، حوّل.

- بابا، أتسمعني؟ حوّل.

- نعم، خمسة على خمسة، راميرو، حوّل.

- بابا، اسمعني. عندي شيء هام أريد أن أقوله لك: في الواقع، هجرت دروس الهندسة الزراعية منذ سنتين، وأنا الآن في التواصل الاجتماعي. آه، جزئية صغيرة أخرى: أنا مأبون. حوّل.

- ولكنهما سيعلمان بذلك في يوم أو آخر، -قال دانيال.

- في يوم، نعم. ولكن ما أتمناه، هو أن أجتاز امتحاناتي أولا وأجد شغلا كي أستطيع أن أبقى هنا، حتى وإن توقفوا عن مدي بالمال. عندئذ، سأقول لهما إنني تخليت عن الهندسة الزراعية. الباقي يأتي من بعد، وربما لن يأتي أبدا، لا أدري.

- هل الدراسة وتأجير شقة يكلفان كثيرا؟

- لماذا، هل تنوي القدوم للدراسة في بوينس آيرس؟

- لا أدري. هكذا خطر ببالي.

- ولكنك هناك، لست طالبا؟
- لا، أعمل عند زايشو.
- عند زايشو؟
- نعم.
- لا ! ينبغي أن تواصل الدراسة. لن تقضي حياتك في العناية بالدجاج؟
- لا، فقط في هذا الوقت.
- لو جئت، فماذا ستدرس؟
- الطب ربما.
- لكي تفتح عيادة في كوروغوازو، مثل والدك؟
- مثلا، لم لا.

وهما في نقاش، كان دانيال يتطلع إلى راميرو، بحثا عن شيء فيه، حركات أنثوية أو طريقة في اللباس قد تفضح مثليّته، ولكن كل شيء بدا له عاديا. لو لم يسمع منه ذلك بلسانه لما صدقه. بعد أن استحم وتثبت من كيفية الوصول إلى ريكوليتا، خرج في حرارة الشارع لركوب الباص، دون أن يتناول الفطور، وهو موزع بين ثقل الثملة والرغبة في لقاء صوفيا، وفي ذهنه أن زيارة معرض هي آخر ما يخطر بباله. وها هو الآن ينتظر تحت الشمس، متابعا بنظره المارين.

رآها تقبل، خفيفة، عارية الكتفين، في قميص فضفاض ذي حمالتين، ومداس وتنورة طويلة منورة. شعرها المسدول، المصبوغ بلون أصهب، يبرز عينيها.

- صديقاتي لن يأتين، لقد أخللن بالموعد، -قالت وهي تحييه-. هل تريد أن تزور المقبرة؟

- لست متحمسا، - قال.

- تعال، ستعجبك.

عبرا كنّة المدخل العالية وسارا في المسارب وسط واجهات قباء المدافن محاولين التيه فيها. تخيل دانيال أنهما عملاقان يذرعان مدينة منكوبة مهجورة.

- لا أحد يعيش هنا؟ - سأل.

ضحكت صوفيا.

- من سيعيش في مقبرة؟

- ولكنها تبدو كالبيوت، قال دانيال. كأن الناس يعيشون هنا كي يحرسوا موتاهم.

وهما يتقدمان، كانا يفزعان الحمام الجاثم على رؤوس الملائكة وأذرعتها. كان دانيال مندهشًا من كثرة الأضرحة، والأعشاب النابتة في شقوق الغرانيت، والأنصاب البادية خلف الزجاج القذر.

- متى انتهى حفل الليلة؟ - سألت.

- لا أدري. نمت على الأرض بقناعي.

- هذا خطِر جدا. بعض قبائل الهنود تعتقد أن من ينام وهو يحمل قناع حيوان، يمسخ في شكل ذلك الحيوان.

- لعلي مُسخت إلى فزاعة طيور الدوري؟

- طيب... انظر كيف يطير الحمام وتفر القطط عند مرورنا...

- إذن، ذلك لأني فزاعة قطط.

- فزاعة قطط، قالت.

- والعمل الذي تنوين إعداده للكلية؟ - سأل دانيال.

- فكرت في ذلك قليلا، -قالت-. اخترت ريكوليتا لأنها أسهل. سوف أتحدث عن إيروس وتاناتوس.

- ما معنى هذا؟

- الغريزتان اللتان تدفعان الكائن البشري: الحياة والموت. انظر ما ترى: هذا نصب كبير للموت، مقبرة، إنه تاناتوس نفسه يمتد إلى الرخام، ويعرض للضوء نهارا، مثل فسحة عامة، بأسماء وألقاب، لتخليد الفضيلة والشرف. في الناحية الأخرى من الجدار، يوجد الرصيف المقابل، أرأيت تلك النوافذ، إنها فنادق الترانزيت، فنادق دعارة...

نكس دانيال رأسه.

«... إنها معابد الحب، إيروس العابر، المتنقل، خلف أبواب مغلقة، مجهول، سري، ينظر إليه كشيء مستتر، فاجر، غير لائق. التباين بين هذين الشيئين يتبدى لي تقريبا صورة من مجتمعنا. فنحن نظهر الموت ونخفي الحياة. هذا بسيط، ولكن هذا تقريبا هو الذي أريد الحديث فيه.

كان دانيال يستمع لها مذهولا.

- «كم عمرك؟ - سألها.

- ثلاث وعشرون سنة، وأنت؟

- أي عمر تقدّرين؟

- لست أدري. إذن؟

- سبعة عشر عاما، - قال لها.

- تبدو أكبر سنا. ليس من جهة الوجه، بل من النظرة وكل ذلك.

قادته صوفيا إلى متحف الفنون الجميلة، وهو ما لم يغير من فتور دانيال. من بين كل ما يراه، لم يكن يهمه غير صوفيا. جال في القاعات متظاهرا بالفضول، ولكنه في الواقع كان ينظر إليها هي حين تتوقف أمام اللوحات، وذراعاها متماسكتان خلف ظهرها، أو وإحدى رجليها ترتكز بغير انتباه على قدمها الأخرى، وحين تطوف حول المنحوتات في مشية تبرز مؤخرتها تحت التنورة الرهيفة أو تنحني لقراءة التعاليق، فيرتفع القميص بشكل يظهر زغبَ ظهرِها المشمشيَّ. في جولاتهما الموجزة، كان كلاهما يتظاهر بأنه لا يعير الآخر اهتماما؛ كان يرقبها خطفا، يدنو منها بتؤدة، فتفرّ منه، تتوقف وتتركه يلحق بها، بطريقة مثيرة.

عند الخروج قالت له:

- هل كنت تعرف أن راميرو مثليّ؟

- لا، كنت أجهل ذلك.

- وهل فاجأك؟

- بالأمس، نعم، كثيرا. عندما باح لي بسرّه، قلت في نفسي: «لا سبيل لقضاء الليل هنا».

- ولكنك بقيت.

- أجل. بين سجائر الحشيش والتيكيلا، لم يخطر ذلك ببالي. حتى اليوم، لما رأيته يرتدي ثيابه واكتشفت أن علاقتنا هي نفسها. بدا لي ألا شيء تغير.

- ما الذي يمكن أن يتغير؟

- لا أدري. لو يبدأ في التحرش بي...

- لا تكن غبيا. هو يعيش مع شخص آخر. ولن يثب عليك على أية حال.

- ورغم ذلك لا أفهم كيف يمكن أن يحب الرجال.

- بالطريقة نفسها التي يحب فيها الرجال النساء.

- طيب، ولكن كيف؟

- لنقل، إذا أعجبك شخص ما، تحب الكيفية التي يلبس بها، وينظر إليك بها، فتحب يديه، بشرته...

- يديه؟ - قال دانيال.

- منذ حين في المتحف، ألم تنظر إلي طول الوقت؟

- أنا آسف،- قال دانيال وقد احمر وجهه.

- لا تكن أبله، يعجبني أن تنظر إليّ. أنا أيضا أنظر إليك. الرجال يثيرون إعجاب النساء وبعض الرجال أيضا.

- ويداي، كيف هما؟- سأل.

- أرني، -قالت صوفيا وهي تمسك إحداهما-. جميلة جدا، قالت وظلت محتفظة بها طوال الوقت الذي استغرقتها جولتهما عبر الشوارع.

- يقال إن الأمور في الصين أو في اليابان، لا أدري بالضبط، عكس ما هي عليه هنا، فقد بدؤوا يميزون من هم غير مثليين.
- ذوو الاشتهاء الطبيعي؟
- نعم. بسبب تفاقم عدد السكان. الأزواج الذين يمكن أن ينجبوا أطفالا ينظر إليهم نظرة سيئة، بدعوى أنهم مسؤولون عن هذا الوضع الذي يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض. اجتماعيا، من الأفضل أن يكون الفرد مثليّا. لتقليص نسب الولادة، لا تنفك الدولة تمنح المومسات مبالغ متزايدة كي يخفضن أسعارهن. يقال أيضا إن في بعض الحمامات العامة، في كبينة ما، بدل المرحاض توجد دمية تنتعش عند وضع بضعة قطع من النقود وإن الناس يسـ....
- يستفعلون فيها؟ - قالت صوفيا مرتعبة.
- نعم، في نفس وضعية الكلاب. هي موضوعة على نوع من المصطبة، على قدر طول الرجل. وتصنع منها نماذج لا تني تزداد قربا من الواقعي. مع آخر موديل، فيما يبدو، تضغط على زر لتقول اسمك فتكرره وسط لهاث مسجل.
- من أين جئت بكل هذا؟
- قرأته في مجلة.
- ما هي؟
- لم أعد أدري. لم أعد أذكر.

جابا المعرض وبسطات البضائع حيث تباع الأقراط والخواتم

والفساتين الملونة، وأطر الصور، وحافظات النقود، والمشكالات، والأقنعة. شقا طريقهما ببطء وسط الزحام. قال لها دانيال إنه لم ير في كوروغوازو، حتى في أيام الكرنفال الأشد إقبالا، مثل هذا العدد من الناس في مكان واحد.

كانت تهب على فترات في الهواء الساخن رائحة سكر ملبّس اللوز المقلي ويُعاوده الغثيان الذي سببه الكحول. استمعا لرجل يغني، عبر مكبر صوت يضخّم بعنف صوته وقيثارته، شاهدا فرقة تضرب الطبل وتقدم عرضا في فن الـ «كابويرا»[1]، ورجلا وامرأة متنكرين في زي أباتشي يبثون أنغام تانغو على مدوِّرة أسطوانات، ويؤديانها بحركات باليه كورتي وكويبرادا شبيهة بتلك التي نراها على البطاقات البريدية. في بعض الأماكن تعتلي مختلف الأنغام الموسيقية بعضها بعضا بشكل تبدو معه كلها ناشزة، وتجعل الواقع نفسه متنافراً. لاعبو الخفة، النظرة الجامحة لبائع المثلجات، الرسامون بلا أذرع الذين يرسمون بأفواههم، بلاّعو النار اللفظون للّهب وكأنهم يريدون حرق صخب طال كبته، المهرجون الارتجاليون، المتنبئون بالورق. بدأ دانيال يشعر بالدوار، لكأن حفلة الليلة تواصلت في وضح النهار لتصبح تجمعا شعبيا ضخما وتتحول إلى هذا المعرض، بل لكأن بوينس آيرس كلها لم تعد سوى هيجان أناس متنكرين تحت شمس ديسمبر.

---

(1) Capoeira: فن قتالي أفرو برازيلي يستمد جذوره من أساليب القتال والرقص لدى الشعوب الإفريقية زمن العبودية في البرازيل. ويتميز عن فنون القتال الأخرى بالألعاب البهلوانية.

أرادت صوفيا أن تتوقف قرب حلقة بعض المارة لتشاهد بهلوانين مصبوغي الوجه يتلاعبان بمشاعل. وبجانبهما رجل ثالث مقرفص يضمخ بالبنزين مشاعل أخرى ويشم الوقود من الصفيحة مباشرة، ووجهه مصبوغ بالأخضر. كان الرجال الثلاثة يتقاذفون المشاعل دون فائق مهارة. وفي النوبة الثانية احتاجوا إلى متطوعين فاختاروا بعض الفضوليين وقادوهم من أيديهم إلى وسط الحلقة: سائحة ألمانية، ومراهقتين طويلتين الشعر يبتسمان في خجل. حاول دانيال التملص دون جدوى، إذ أمسكوه هو أيضا. مددوا الجميع على الأرض رأسا لقدمين، ووضعوا في يد كل واحد مشعلا، ثم جعلوا يقفزون تباعا فوق اللهب. اندفعوا وحطوا جنب دانيال الذي كان آخر الممددين، فرأى عبور النعال المطاطية وسراويل الكتان اللامعة والملونة فوق رأسه. عند آخر قفزة، اصطدم ذو الوجه المصبوغ بالأخضر بمشعل دانيال، ما اضطر الشاب إلى إمالة رأسه كي يتجنب حدّ عصا المشعل التي انغرزت في الأرض. أحس دانيال أنها خدشت جمجمته. نهض وسط التصفيق والتحق بصوفيا. مرّ بيده على رأسه فإذا هي ملطخة بالدم. كان الناس قد بدؤوا يتفرقون لأن البهلوانيين أخذوا يطوفون حولهم بقبعة. قالت لهم صوفيا إن دانيال جرح، فاقترح أحدهم مداواته بالبنزين، فيما الآخران لم يُعره الآخران. قال دانيال إن هذا لا أهمية له، ولكن صوفيا أسمعتهم ما يكرهون حتى قال لها ذو الوجه الأخضر:

«اسمعي يا جميلتي، هذا عرض فيه مخاطر، وصديقك كان من المتطوعين، فليتحمل ما أصابه وليتصرف كولد كبير».

اضطر دانيال أن يجذب صوفيا من ذراعها لأنها كانت تشتمهم وتهدد بالتبليغ عنهم. حمل البهلوانيون عدتهم على أكتافهم وانصرفوا بضحكة ساخرة ما استطاعوا كبتها.

وجد دانيال صعوبة في تهدئتها، قائلا إنْ هو إلا خدش بسيط ولا داعي أن تقلق. أصرت صوفيا أن تقوده إلى بيتها لتعالج جرحه. ركبا حافلة بطيئة مخدرة بتكاسل أيام الأحد، حتى بلغا الشقة الصغيرة التي تعيش فيها صوفيا، قرب حديقة النباتات.

«اجلس هنا»، قالت له، وذهبت لتجيئه بدواء.

كان ضوء العصر يدخل الشقة بإشعاع متعب ويحطّ على بسط الجدار الإثنية الصغيرة وبعض معلقات لفرقة رولينغ ستونز.

«تحبين الرولينغ ستونز؟ - هتف دانيال.

- كلا، -قالت وقد عادت بقطن وقنينة كحول-. هيا. أرني جرحك».

جعلت تفرق شعره بعناية وطلبت منه أن يفرج ركبتيه حتى تستطيع أن تقترب منه أكثر. تاه من ذلك عقل دانيال: كان نهدا صوفيا في مستوى عينيه، على مسافة بضعة سنتمترات، تزيدها انحسارا قطعة نقود شرقية في سلسلة عنقها غائصة وسط قميصها الكاراكو الرهيف، دون حمالة.

«ستنوّم نفسك مغنطيسيا..». قالت صوفيا محذرة وقد لمحت نظرته.

ضحك دانيال وهو يراها تسكب الكحول على القطن وتقربه من جمجمته.

«سيكون مؤلما، أليس كذلك؟

- بلى، فالشجة بليغة».

أحس الحرق. نفخت صوفيا نفخا خفيفا على الجرح وهي تدوّر شفتيها الورديتين.

- يحرق؟

- قليلا، قال دانيال مترنّحا وهو يتملى الكتفين والحركة العارضة للترقوتين وهما ترتفعان بشكل دائري والجيد الأبيض القريب من شفتيه.

واصلت النفخ، وقد صارت تمسك رأسه بين يديها وتزداد اقترابا. أحس دانيال بشعرها المسدول ينساب عليه مثل شلال بطيء؛ عندئذ، وفي نوع من المازحة، راح ينفخ بدوره على جيدها وكتفيها، ولاحظ مندهشا من آية من آيات الطبيعة أن نهديها كانا ينهضان تحت القماش القطني. نظرت إليه في عينيه، ابتسم فأنزلت الحمالة الأولى ثم الثانية، وفجأة سُمع صوت مفتاح يدار في القفل.

«أختي»، قالت وهي تبتعد.

وضع دانيال رجلا على رجل وحاول إخفاء انتصابه. دخلت فتاة بنظارة وهي تحمل ملفات. كرهها دانيال من كل قلبه. ألقت بالتحية «أهلا !» فردّا عليها معا «أهلا !» بصوت فيه من زائد الثقة ما يريب. اتجهت أخت صوفيا إلى غرفتها قائلة:

- أرجو أني لم أقطع أي شيء.

- لا، لا، قالا معا وهما ينظران إلى بعضهما بعضا.

صوفيا.

- كلا، غدا، بعد الظهر.

أحس دانيال بالدم يصعد إلى صدغيه. عندما دنت منه باتريثيا لتسلّم عليه، سلم عليها دون أن ينهض إلا قليلا.

تناولوا قهوة مع خبز محمّص وهم يتبادلون كلاما مقتضبا ويستمعون إلى مرثيديس سوسا. سألت باتريثيا أختها:

- هل نظفت دراستي أحادية الموضوع؟

- نعم.

- ماذا تدرسين؟ - سأل دانيال.

- علم النفس.

- أنت أيضا؟

- نعم، لماذا؟ أنتَ أيضا؟ - سألت باتريثيا.

- كلا، أنا أنهيت الثانوية التقنية هذا العام، وأعمل في مصنع.

- لا أفهم، قالت باتريثيا. لماذا قلتَ: أنتِ أيضا؟

- هذا المساء، ستذهبين للعشاء مع ماما وسرخيو؟ قاطعتها صوفيا.

- نعم. أنت أيضا ينبغي أن تذهبي، لأنهما سيقومان بعدها برحلة»، - قالت باتريثيا.

وانخرطت البنتان في الحديث ثم في الخصام. أحس دانيال بالحرج فقال إن عليه أن ينصرف. رافقته صوفيا حتى الطابق الأرضي. ولما

بلغا الباب، قال لها:

- لست في قسم علم النفس، أليس كذلك؟

- لا. أشعر أني غبية إذ كذبت عليك.

- ولست في سن الثالثة والعشرين أيضا؟

- عمري تسعة عشر وأحب الرولينغ ستونز.

- ولكنْ كلُّ ما قلتهِ لي عن المقبرة وإيروس التنكّر، كنت تعرفينه؟

- نعم، لأني أنسخ دروس أختي وأقرؤها. عندي رغبة كبيرة في الالتحاق بالكلية وقد رسّمت اسمي للسنة المقبلة. أما الآن فأنا أشتغل.

- لمَ كذبت عليّ؟

- اعذرني، -قالت وهي تنظر إلى مِنجدها-. جلبت انتباهي خلال الحفلة، أعجبتني، ولمّا سألت عنك راميرو، قال لي إنك ستعود من حيث جئت بعد بضعة أيام، فخطرت ببالي فكرة العمل في ريكوليتا حتى نلتقي، ولكن كلّ شيء سار على غير ما رسمت. كنت أحسب أنّ أختي سافرت و...

- اختلقت كل هذا حتى تلتقي بي؟

- هل كنتَ تدعوني؟

- بصراحة... لا أدري هل كنت سأجد الشجاعة لذلك.

- إذن هذه الكذبة لم تكن فكرة سيئة، - قالت صوفيا.

ضحك دانيال.

«تستعملين هذه الخطة مع كل الأولاد الذين يعجبونك؟

- أي خطة؟

- تبتدعين شيئا ما؟

- إذا أعجبني، نعم. أحاول استعمال ذهني.

- وما الذي يعجبك فيّ؟ - سأل دانيال.

- لا أدري، لديك شيء ما في العينين، مثل جوع لحاجةٍ ما، كأنما أنت تبحث عن شيء طول الوقت وتحس أنك توشك أن تجده».

قبّلته صوفيا وهمست في أذنه: «تعال غدا مساء في الساعة العاشرة. أختي لن تكون هنا».

أراد دانيال أن يطيل القبل ولكنها دفعته نحو الباب قائلة «غدا». تابع ركوبها المصعد ثم انطلق عبر الشوارع المظلمة.

أمام كشك مجموعة شبان في مثل سنّه كانوا يشربون البيرة.

- هل عندك خمسون سنتيما للباص؟

- لا،- قال دانيال دون أن يتوقف.

- سيجارة؟

- لا أدخّن.

- لماذا تعيش، إذن؟

سمع خلفه خطوات راكضة، أدرك أنها فقط لتخويفه فلم يلتفت. واصل السير متوترا قليلا. تهشمت زجاجة قربه فاهتزّ، وتناهى إلى سمعه إثرها ضحك. مرّت تاكسي قربه فناداها.

كان السائق في سنّ الثلاثين على ما يبدو، ذو شعر طويل، ولحية

وشارب وهيئة أشبه بعيسى المسيح ولكن في نظرته جموحٌ يلمحه دانيال في المرآة العاكسة.

- أولئك الفتية كانوا يزعجونك؟

- نعم. - قال دانيال.

- تريد أن نعود لنلقّنهم درسا؟

- لا.

- هؤلاء المخدّرون الحمقى، يهيمون في كل مكان الآن. لا بدّ من إعادة حظر التجول.

- ما معنى هذا؟

- حظر التجول؟ هو قانون يمنع على كل الناس أن يتسكعوا في الشوارع بعد العاشرة ليلا.

- ولكن في تلك الحالة لن يكون لك عمل؟

- وما الحيلة؟ يجب أن نعيش مع ذلك. أين نذهب؟

- 900، شارع أنتري ريوس.

- أنت عائد من العمل؟

- لا، -قال دانيال-. أنا عائد من عند فتاة جعلتني مجنونا.

- آه، البنات، جميلات ولكنهن قذرات، -قال سائق التاكسي-. أنا ما عدت أخرج إلا مع المومسات، كل الأخريات قذرات. المومس تدعوها إلى العشاء فتشكرك، تعطيها قليلا من الحنان فتشكرك، أما الأخريات... هل تعلم أن الكلب أكثر ذكاء من بعض البنات؟

- أتعتقد؟

- نعم، تمعّن. الكلب إذا قام بفعل سيّىء، تعاقبه، بشدة، هه، وليس بلمسة خفيفة، لا، ضرب مبرّح، طوال حياته لن يعيد الكرّة أبدا، على عكس البنت التي تأتي عملا مشينا، لا تتعظ مهما طرّقتَها، تنسى، وتواصل حماقاتها.

كان دانيال ينظر عبر نافذة السيارة والسائق يضغط على دواسة البنزين كلما أبصر الضوء الأخضر. جاوزته سيارة إسعاف زاعقة بصفّارتها وبدت كل أضواء الشارع متقلبة.

«مع مومس، كل شيء يجري بالتراضي، تراها إذا رغبت، هي تريد فلوسك، وأنت تريد مضاجعة، تبادل؛ أما الأخريات فهن يردن كل شيء، البيت، والفلوس، وفوق ذلك كله يمارسن الجنس مع رجل آخر، كذلك هي الأمور يا صديقي».

في عطفة شارع، أبصرا رجلا يودع امرأة وهي تركب تاكسي.

«انظر إلى هذا، -قال السائق-. إنه يقبّلها. تمام. انظر: هو يقفل الباب في أدب، والحال أنه لا شكّ يقول في نفسه سرّا: هذه العاهرة سخرت مني، تعود إلى بيتها وأبقى وحدي في غرفتي أعاني الضجر والملل، أتقلّى في القيظ، وأزعزع نفسي. عاهرة بالثلاث».

جعل السائق يقود بأكثر سرعة، ويزمجر بالشتائم وهو يبدل السرعة في حنق. كان دانيال صامتا. لا يدري أين يوجد. رأى أقواس سوق تتوالى بسرعة فائقة، إنّها ساحة ميسيريري. لم تعد التاكسي تقف عند الأضواء. بدا الرجل نهبا للذكرى، لا يني يردّد: «كلهن عاهرات!» ويضرب بجُمع يده لوحة القيادة. انعطف في نهج بحي

أونثي في صرير عجلات نفّاذ كاد إثره أن يصطدم بشاحنة قمامة، تجنّبها وانثنى في أنهج أخرى، قبل أن يفرمل فجأة. أدرك دانيال، وقد ملأ الخوف قلبه، أنهما تاها.

«لا أعتقد أن هذا هو المكان»، قال بصوت مرتجف.

نزل السائق دون أن يصغي إليه، وجعل يضغط على زر هاتف داخلي. سمعه دانيال يشتم امرأة. ثم عاد فمدّ ذراعه عبر النافذة وضغط على زمور السيارة بإلحاح، حتى ملأ الشارع ضجيجا. «أنتِ أدنى من لا شيء ! تعرفين من أكون !» كان يرفع رأسه نحو إحدى النوافذ ويصرخ: «سأحطم أشداقكما، أنتِ وعشيقك القذر !» ثم عاد إلى الهاتف الداخلي فضغط بذراعه على كل الأزرار. شع الضوء من بعض النوافذ. «التي تسكن في 6 ب تتظاهر بالرفعة، ولكن كل بورزاكو ركبها !» امتطى السيارة وصفق بابها بعنف وانطلق قليلا ثم توقف. «مومس، حقيرة ! ينبغي أن يعرف كل الناس أنها مومس!» خرج بنصف جسده من السيارة. «كل بورزاكو وطئ تلك التي تسكن في 6 ب»، كان يصرخ ويضغط الزمور. ثم داس على البنزين وعاد إلى الشارع، دون كلام.

عند الوصول، خصم جانبا من المبلغ بسبب الجولة الزائدة. دفع له دانيال بسرعة ونزل. فتح الباب الخارجي؛ بدا له أن الوصول إلى مسكن صديق أخيه عودة إلى ملاذ.

(12)

في وسط حيّ الشؤون التجارية والاقتصادية، وتحت شمس الزوال من يوم الاثنين، وقف دانيال في صف أمام البنك ليقبض الشيك الذي أعطاه إياه روميرو. تنقل على طول الصفّ، كعملية هضم لدى ثعبان، خبرٌ عن قطع التيار الكهربائي وعن الحواسيب التي ما عادت تشتغل. استند دانيال إلى الرخام الأسود لمدخل عمارة. لم ينم جيدا، إذ ظل يبحر بفكره من صبرينا لاف إلى صوفيا ومن صوفيا إلى صبرينا لاف، وعضوه متصلّب بسبب الحرمان الذي فرضه على نفسه منذ يوم القرعة والذهن مشوش بالخيار الذي ينبغي أن يتخذه اليوم بين هاتين المرأتين. كان لا يزال يفكر في الكيفية التي سحبت بها صوفيا حمالتيها وما يمكن أن ينجر عنها - النهدان عاريان، ويداه تصعدان على طول فخذيها تحت التنورة الخفيفة-، كان منساقا للاستيهام حول دعوتها الصريحة لممارسة الجنس في بيتها لأن صوفيا، في حقيقة الأمر، تبدو له أكثر واقعية من صبرينا لاف، فقد عانقها وقبّلها واستطعم نداوة ثغرها ولسانها، ولأنه أيضا أعجبها وأنها قالت له ذلك، أما صبرينا لاف فتلبي فقط متطلبات عقد يربطها بالمنتجين فضلا عن أنّها تفوقه سنا وخبرة وتبدو له بعيدة،

في الجهة الأخرى للشاشة، وقد التقطها الفيديو في أوضاع مستحيلة، خلف أبواب، يراقبها حرّاس لهم هيئة غوريلا وشعور مجعّدة. غير أنه فيما بعد، وهو يبحث عن وضع مريح للنوم، تغيرت استدلالاته وعادت صبرينا لاف إلى المقام الأول لكونها ظلت زمنا بطلة رغباته، ولخبرتها، وتفرّد اللقاء بها حصريا، والكيلومترات التي قطعها لكي يراها، وهكذا دواليك مع خيوط الأرق المتشعبة التي لا تنتهي. على الرصيف الآن، الطقس حارّ والصف لا يتقدّم.

ذهل إذ لاحظ إلى أي حدّ تتضخم الأصوات في المدينة من يوم إلى آخر. كان الأحد قد بدا له صاخبا، ولكن ها هو الإثنين يضج بهدير لا ينقطع، كالبحر، ينفجر في زعيق زمور، وصيحات، ويزأر في فرقعة محركات، وينهار في دكّات البناء. وفي وسط كل ذلك هذه الجموع المتراصة.

سُمعت فجأة قرقعةُ صفيح وشيءٌ كشَطَ الإسفلت. شاهد دانيال شرر دراجة نارية انزلقت. على بعد نصف عمارة من المكان الذي يوجد فيه، تعرّض سائق دراجة نارية إلى حادث. اقترب في قلق ورأى رجالا يسعفون شابا على الرصيف يتألم ولكنه واع، وشرطيا يطلب بالراديو سيارة إسعاف، وسيارة في وضع مائل في الطريق وبابها مصدّع. عندما عاد إلى مكانه، لاحظ أن الواقفين في الصفّ لم يتحركوا لا للنجدة ولا لمعرفة ما حدث، حتى أولئك الذين كانوا على بعد بضعة أمتار من مكان الحادث، ولم يفهم السبب إلا حينما منعته المرأة التي كانت وراءه من استعادة موقعه. «آه لا، يا صغيري! إما أن نحشر أنوفنا في كل مكان أو نبقى في مكاننا. لأنه في تلك

الحال، إذا أراد كل شخص أن يفعل ما يشاء..». والذين في الخلف شاطروها باحتجاجاتهم، فاضطر دانيال إلى الوقوف في آخر الصفّ، حيث انتظر بذهن متبلّد ورغبة في التبول ملحة إلى أن تحرك الصفّ ببطء مثل موكب مسرنمين.

بعد ساعة قبض شيكه، وضع التسعين بيسوس في جيبه وخرج إلى الشارع. أراد أن يشتري قميصا ولكن كان عليه أولا أن يجد مرحاضا.

سار في نهج للمترجلين ظنه فلوريدا ولكنه في الواقع نهج لافال. رائحة حامضة لفضلات متحللة ترفرف في الهواء. أحس نفسه ريفيا وسط أولئك الناس الذين كانوا يتجنبونه بخفة وفتور؛ كأنهم يتوقعون المسار المضطرب لمشيته غير الواثقة، إضافة إلى أنهم جميعا يبدون أكثر استعجالا منه للذهاب إلى بيوت الراحة. حركة الرؤوس المتشابكة والمتقافزة التي لا تنتهي تشبه حلم الدجاج الذي رآه ليلة الأربعاء، ذلك الدجاج القريب منه حجما والذي كان يدفعه وهو يقوق ويتكدس فوق بعضه بعضا هربا من خطر لا ندري ما هو.

دخل إلى بيتزيريا؛ قال له عجوز بصوت مشروخ كان يقف على الصرافة إن بيت الراحة مخصصة للزبائن. واصل طريقه وقد ثقلت عليه مثانتُه كالرصاص. مرّ أمام الواجهات في عجلة لا تنفكّ تتزايد. رأى خياله في هيئة شبح يطل من خلف ساعات ودمى وأجهزة إلكترونية وأحذية. دلف إلى بار ضيق، محصور بين محلين تجاريين.

«هل يمكن أن أذهب إلى المرحاض؟

- إذا استهلكت..».

غلبته الضرورة، فطلب كوكا كولا واتجه إلى عمق البار ونزل سلما ضيقا.

أمام مَبْولة قذرة، أمكن له أخيرا أن يستريح. سمع أنات قادمة من جانب، صيحات مضاجعة حامية. عندما سمع تلك الأصوات خيل إليه أنه فيلم إباحي مدبلج بالإسبانية. «انكحني يا جوني، آه، نعم... هذا لذيذ، زِدْ، زد، زد..». صعد وجلس إلى طاولة محاذية للجدار. لصق الجدار المقابل، في نهاية البار، رجال يأكلون واقفين، وحاملة ملفاتهم بين أرجلهم، ومرافقهم على قوائم الجدار الفاصل وهي لا تختلف كثيرا عن قوائم جدار المبولة. اكتشف أن الفيلم القادم من جهة جانبية يمكن سماعه أيضا من فوق، ودبلجة أدنى آهة عشق، تجيء مثل رعد يدوّي بأنفاس قوية، وتنهدات وأنّات توحي بأن هذا الوصل القريب يقع بين زوجين من العماليق. ولكن الزبائن ظلوا غير مبالين. «خلصني من هذا السروال الداخلي، أنا ألتهب». نظر دانيال إلى الناس يأكلون وهو يستمع إلى اللهاث القوي والآهات العالية: «قضيبك ضخم»، وقرابة الذروة: «أدخله لي حتى العمق»، كأن جانبه الذي اختار أن يقضي ليلة مع صبرينا لاف فاقَم تضخيم حجم الرغائب، إلى حدّ أحس معه أن الناس كانوا يرمقونه، فاضطر إلى تسديد ثمن مشروبه والخروج خجلان.

في النهج، حذو البار، اكتشف سلم مدخل السينما، حيث لافتة كتب عليها: «شريط ×، 24 ساعة على 24 ساعة». وشاهد خروج رجل أسمر ذي ملامح بوليفية وشاب أمْهَق يبدو أقرب انتماء إلى

العالم الديماسيّ منه إلى عالم سطح النهار المضيء. أراد الدخول ولكنه تذكر أن عليه أن يشتري قميصا لكي يكون أنيقا هذا المساء. مشى وسط الضجيج والهياج، محاولا عبثا تحسس طريقه، فقد كان مشوش الذهن تائها كما هي عادته، ضيّعه شارع مائل لم يتوصل إلى إدراكه، لأن تخطيط المدينة الذي بدأ يتشكل في ذهنه مبني على نموذج المربعات المنسقة لأنهج كوروغوازو.

عندما أدرك أنه تاه، لم يرتبك، بالعكس، أحس بحماس غريب ولّدته إمكانية تفسُّحِه دون أن يقع على شخص أو شيء معروف؛ ولأول مرة لمس الحرية التي يجدها المرء حين يكون نكرة: يفعل ما يريد دون أن يعلق أحد على فعله، أو ينتقده أو يربط أفعاله باسمه أو بعائلته. مضى يقتفي أثر الحسان المارّات، معجبا بمشيتهن المتمايلة، وتنوراتهنّ الحسيرة، وأحذيتهن ذات الكعاب العالية، وبلوزاتهن الصيفية المنتفخة باستدارات راقصة مختالة، يتعقب الواحد منهنّ على طول الأنهج إلى أن يبتلعها باب أو مدخل مترو، أو تحملها تاكسي، عندئذ يتبع أخرى فيجد متعة في ترك الطريق يتيه به تيها وزيادة. أحيانا يتوقف جنبهن في مفترق طريق وهو ينتظر العبور وينوي أن يكلمهن، ولكنه لا يجرؤ إلا على سؤالهن عن الساعة. وفي مرات، يزغن عن نظره، لانشغاله بأمر آخر: صورة فتيات في ملابس داخلية على واجهة متجر للملابس المنسوجة، كلوشار يفتش القمامة، تشابك أسلاك في خلفية القبة السماوية، فرملة سيارة، سائقان يتبادلان الشتائم، رجل يُنزل من شاحنة نصفَ ثور مسلوخ يبدو قادما من عالم آخر، عالم سكينة وحقول مخضرة. عبر غاليري

غويمس، مشى جيئة وذهابا تحت شارع 9 يوليو، في النفق المملوء بمتاجر صغيرة حيث قزمٌ يمسح الأحذية، مرّ بساحة مايو وقد شاهدها مرارًا في شريط الأخبار، قبالة كابيلدو التي كان يظنّ أنها تقع في محافظة توكمان. تسكّع سعيدا مفكرا في ما ترك خلفه، شاعرا بأنه يقطع خيطا يخلّصه من نظام قائم، من طريق مرسومة، ليواجه تنوع المسالك الجديدة، وحياة مختلفة، مليئة بالإمكانات إلى أن وقع، وهو ينزل نهجا منحدرا مقتفيا خطى شقراء لها هيئة إطار عالٍ، على ملعب لونا بارك، وانخطف بذكرى استعراض تزحلق على الجليد مضى أن شاهده رفقة أبويه وأخيه وأخته، خلال تلك الرحلة البعيدة إلى بوينس آيرس، عندما كان في سنّ السادسة. أيقن أنه لم ينس قطّ ذلك المبنى ولا تلك الليلة. ظل مسمّرا يتأمل صور الملاكمين على الواجهة الرمادية، إلى أن انقشعت الذكرى فقرر، وهو لا يزال مضطربا من مطبات الذاكرة، أن يبحث بجدّ عن محل يشتري منه قميصه.

دلّته صرّافة محل الملابس الصغير على الباص الذي سيُقلّه إلى بيت روميرو. بعدها بقليل، كان واقفا في المحطة ينتظر، وكيسه تحت ذراعه، جنب كفيف بعصا بيضاء يحمل حقيبة صغيرة. سعل دانيال مرتين.

- هل لك أن توقف لي الباص رقم 6 يا ولدي؟ - سأله الكفيف.

- طبعا، - قال دانيال وهو يروز عينيه المعدومتي النظر.

- لست من هنا، أليس كذلك؟

- بلى، -قال دانيال-، أنا من كوروغوازو. كيف عرفت؟

- من لهجتك. ومن سعالك عرفت أنك شاب.

- من السعال.

- نعم، -قال الكفيف-، يمكن أن نعرف أشياء كثيرة من السعال، الجنس، العمر، ما إذا كان الساعل سمينا أو نحيلا، خائفا، معكر المزاج أو مريضا، أو مدخّنا... أشياء كثيرة. أنت مثلا سعلت بطريقة فيها شيء من التعب.

- نعم، يجوز، -قال دانيال-. ذلك أني ضيعت طريقي في المشي، و... آه ! ها هو ذا الباص.

أشار إليه دانيال ومسك الرجل من ذراعه ليساعده على الصعود. رأى يده تستكشف الفراغ إلى أن لامست جانب الباص. ظل أثر يده مطبوعا قرب الركيزة على خدوش الدهن الملطخة بالمازوت. عندما صارا في الباص، شكره الكفيف واستهل خطابا يمدح فيه جوارب نسوية للراكبين. «بضاعة ذات جودة ممتازة -كان يقول- مستوردة، بسعر لا يضاهيه سعر السوق». ويخرج من حقيبته جوربين فيمططهما ويخز وسطيهما بإبرة. «لاحظوا وأخبروني، أنا الذي لا يبصر، ما إذا كان النسيج يُثقب. تثبتوا بأنفسكم من جودته». سار حتى آخر الباص دون أن يشتري منه أحد. «هل يوجد هنا شخص آخر؟»، قال وهو يعود إلى مقدّمة الباص، متحسسا طريق حقيبته لكي ينزل.

جلس دانيال على أحد المقاعد المزدوجة، من جهة الممر، جنب امرأة ضخمة الجثة. كان متعبا. فكر أنه يحتاج أن ينام بضع ساعات لكي يصل إلى موعد الليلة في كامل لياقته الجسدية؛ قبل ذلك، ربما من كبينة قرب بيت راميرو،عليه أن يهاتف أخاه ليطمئنه على

حاله. كان الناس يركبون، يحتلون المقاعد الشاغرة، يملؤون الممر، يتكدسون. وكان الطقس حارا. حاول دانيال ألا يضغط بفخذه ساق المرأة التي حذوه، أحس بشيء طري على كتفه اليسرى، لعله بطن امرأة واقفة، حبيسة الزحام. أمام عينيه يد رجل تتعلق بالمقبض. رأى عروقه الرمادية ومفاصله وأظفاره الطويلة. كان شعرُ فتاة أسودُ لامعٌ ينساب على ظهر المقعد الذي أمامه. رآها دانيال تدفع كتف جارها، ولدٌ ذو أذنين كبيرتين معروقتين راح يتمايل من فرط النوم وفي كل مرة يقع عليها. أحس أنه وقع في فخ هذا الركام من الأعضاء وروائح العرق في الجو العفن. أذهله ألا أحد يتكلم، أن يتحول ركام الأجساد إلى صمت. نظر إلى الخارج وترقب أن يرى الأماكن القليلة التي يعرفها تمر أمام عينيه، ولكن الباص كان ينتهج مسالك تزداد ضيقا وظلمة، يكاد يلامس المتاجر المكتظة بالبضائع ويافطات الأسعار، ويرغم المارين على الالتصاق بالحائط، كأنه يسير في ممر يزداد عمقا وابتعادا عن الأضواء، وكأن مرور أناس وعربات كثر طوال سنين أدى إلى تعرية الأنهج ذات البيوت المنخفضة ليحفر فيها هذه الآبار والحفر الممتدة بين واجهات عمارات وسط المدينة التي لا تفتأ تعلو وترتفع.

(13)

كانا في السرير، يتعانقان، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التلفت حوله، كأنه يحس أنه مراقَب. الجدران مقدودة من كراتين مجمعة بغير عناية، وبضعة أخبية بالية من الباش تمزقها الريح وتحملها. كانت تنتظر مغمضة العينين أن يعاود تقبيلها ولكنه اكتشف أن السرير موضوع على الإسفلت، وسط الشارع، في وضح النهار. وأنّ الناس يمرون بقربهما، نساء مضغوطات ورجال في بدل رمادية. كانت تلتفّ على نفسها كي تنام وهي تلومه على عدم المواصلة. جلس رجل ذو معطف مشمع على حافة السرير ليدخن سيجارة، وتخطاه ثانٍ وهو يدوس اللحف البيضاء، فيما الباصات تنتهي عند منعطف الشارع فتحك قوائم السرير وتصدمها بطرف مضاد الصدمات. توقفت سيارة على بضعة سنتمترات من رأسه وجعلت تزمّر. أفاق دانيال. نظر إلى ساعته: كانت تشير إلى التاسعة والنصف ليلا.

هذا المساء، لما عاد إلى بيت راميرو، استلقى على المضربة التي وضعها مضيفاه على ذمته في قاعة الجلوس، دون أن يهاتف أخاه أو يبحث عن هاتف صوفيا ليعلمها أنه يتعذر عليه المجيء. مفضّلاً تأجيل الحجج الزائفة التي سوف يقدمها لها.

وجد الوقت كي يستحم ويحلق ذقنه. في الساعة العاشرة، قدّر أن صوفيا في انتظاره فمازجه ندم. في العاشرة والنصف كان في الباص 37، وأسنانه التي سوّكها منذ حين تصطك، ورعدة مفاجئة تخضه تحت قميصه وسرواله النظيفين، والواقيات في جيبه وشعره هادئ بعد أن بلله وسرحه إلى جانب، مثلما كانت جدته تتمنى أن تراه.

انعطف الباص في شارع لاس هيراس، بعد بضع بناءات سوف يصل. وعاد الخوف يعتصر أمعاءه. فكّر أن يواصل رحلته فينزل في حديقة النباتات ليذهب إلى صوفيا، ويعتذر لها عن تأخره ويبقى بجانبها، ولكن ما سوف يعقب ذلك لن يرعبه بقدر أقل مما سيفعله مع صبرينا لاف. فقد صار الآن واجبا يفرضه على نفسه، شيء لا بدّ أن يمرّ منه مهما كان الثمن، ربما لكي يتذكره فقط فيا بعد، أو لأنه لا يريد أن يخون نفسه، لا يريد أن يخيّب هذا الدانيال الذي طالما حلم بتلك المرأة ورغب فيها.

نزل في نهج أزكويناغا. اضطر أن يسأل الناس كي يدلوه على دكان لبيع الأزهار لا يزال مفتوحا في مثل هذه الساعة. اشترى أخيرا باقة من الفريسياس[1] ومضى إلى فندق كيوبس بمعنويات من يساق إلى المشنقة. على طول المقبرة شاهد الملائكة والقباب السوداء التي تندّ عن السماء المصفرة. عند الوصول، تفقد ساعته. لم يَخِن موعده بعد ولكنه دخل. أمام الشباك، وقف زوجان يريدان غرفة. ولما انصرفا، تكرر مشهد السبت مع البواب.

- ما حاجتك؟

---

(1) نبتة من فصيلة السوسنيات تتميز أزهارها بألوانها المتنوعة ورائحتا الذكية.

- أنا الفائز في مسابقة صبرينا لاف.

طلب منه من جديد بطاقة هويته، أجرى مكالمة، وقال إن المنتج سينزل. استرجع دانيال بطاقته وأعادها إلى جيبه بسرعة وقد ارتاح أن البواب لم يلاحظ سنّه. بعد بضع دقائق شبيهة بالنزع أقبل الرجل القميء نفسه، مرتديا بذلة في لون الخردل مشمّرة الكمين.

«هذه المرة كل شيء تمام، يا بطل!» قال لدانيال وهو يربت على خدّه. «في غاية النظافة وبباقة أزهار، برافو ! اتبعني».

عبرا في مظهر ارتسامي ممرات ذات جدران مكسوة بموكيت برتقالية وركبا المصعد. ضغط الرجل على زر الطابق الرابع وتطلع في المرآة وهو يدير رأسه ليتفقد هيئته من كل الجهات. أخرج من جيب جاكتته جعبة مثبّت شعر، وضع قليلا منه في راحة كفه ومسح به شعره في حركات سريعة. ثم راز دانيال، وسوّى له باقتضاب ياقة قميصه وخرجا إلى ممر آخر.

- صبرينا لا تزال في الغرفة التي يجري فيها التصوير. سننتظرها هنا. اسمك دانيال، أليس كذلك؟

- بلى.

- أنا اسمي ليوناردو.

توقفا أمام غرفةٍ بابُها مفتوح، وظلا مسمرين هناك، يتابعان دخول الرجال المكلفين بالمعدات السينمائية وخروجهم. من خارج الغرفة، عرف دانيال الجاكوزي والسرير اللذين يظهران في البرنامج، ولكن بدا له كلُّ شيء أصغر، وأكثر اختزالا. تعالى صوت نقاش من الداخل. خرجت امرأة تلبس فستانا من الفنيل الأزرق ملتصقا بجسدها. حياها

ليوناردو، ولكن المرأة لم تردّ. تابعاها بنظرهما وهي تبتعد.

«هذه هي بربرا، التي تقوم بدور السكرتيرة في فيلم ولوج ممتاز»، قال ليوناردو.

- والممرضة في فيلم المصحة المغتلمة، -أردف دانيال-. وتمثل أيضا في نادي الملذات، اسمها بربرا سميث، وهي في مجلة بلاي بوي، عدد أغسطس.

- ما لك ممتقع يا صاح؟ اهدأ قليلا. لست على ما يرام؟ -سأل لوبناردو.

- كلا، أنا جيّد...

- خذ نفَسًا قويّا».

تنفس دانيال جيدا. كان النقاش القادم من الداخل قد تصاعد؛ صوت خصومة بين رجل وامرأة. عرف دانيال الصوت المبحوح الذي أجابه أول مرة في الهاتف؛ أما صوت المرأة فقد بدا له أليفا، كأنه صوت صبرينا لاف، ولكن بأقل عذوبة وأكثر حدّة. كانت الصرخات تقترب من الباب. رجل له رأس ضفدع، تغطي جسمه سلاسل من ذهب، ويدخن سيجار هافانا، خرج مزمجرا: «أوكي يا صغيرتي. لنصور المشهد بشخص أقل. لا داعي أن تغضبي. بالنسبة إليّ، هذا أقل تكلفة. إذا لم ترغبي في أن تكوني سندوتشا، لا نجريه، نقطة».

-«بيانكي، هذا دانيال، الفائز في عملية القرعة، - قال ليوناردو.

- ممتاز، -قال بيانكي وهو ينظر إلى دانيال-. أنت متأكد أنك في سن الرشد؟

- نعم.

- طيب، صبرينا قادمة حالا. تحدث معها. إنها متوترة قليلا، وغيّر هذا الوجه يا صغيري، كأنك ستُصلب»، قال بيانكي، وابتعد وهو يدخن سيجاره.

ترقبا.

- ها هي قادمة، - قال ليوناردو لدانيال.

- أنا جيّد؟ - سأله دانيال.

- طبعا، رائع، كفّ عن الارتجاف.

أطلت صبرينا لاف في مئزر حمام سماوي، معقودة الشعر، حافية القدمين، وقد لوث خضاب الأجفان وجنتيها بسبب البكاء.

- صبرينا !

- ماذا؟ - قالت دون أن تتوقف.

- هذا دانيال، الفائز في المسابقة.

التفتت صبرينا ونظرت إلى دانيال. بدت كأنها تحت تأثير منوّم.

- «لا يا أرنبي، ليس اليوم، أنا مرهقة، عد غدا، هذا أحسن»، -قالت وواصلت طريقها.

بقي دانيال مذهولا، والأزهار في يده. رآها تبتعد. ازدرد ريقه وجعل يتكلم كأنه يفعل ذلك لأول مرة بصوت مقطع مخنوق، قبل أن يقوى عزمه:

- في الواقع، أنا... قطعت خمسمائة كيلومتر كي أراك، جئت عن طريق النقل الإيقافي، مشيت على قدميّ، سافرت على متن

طوف، وشاحنة، وسيارة، وحافلة، كل ذلك حتى أكون هنا يوم السبت، ولما وصلت، قيل لي أن أعود يوم الاثنين لأنك لا تقدرين، انتظرت يومين وها أنذا. لقد جئتك بباقة أزهار.

كانت صبرينا قد التفتت، فمدّ إليها دانيال الأزهار.

«يا للحب، -قالت وهي تأخذها منه بحنو-. أنت كنز». ثم مسكته من يده قائلة: «تعال» وقادته عبر الممر.

حيتها امرأة طويلة سمراء في بيكيني ذات عجيزة ضخمة.

- صبري، ألا تعلمين أن بين الأمس واليوم، وبفضل ظهوري في حصة السبت، زارني ما لا يقل عن أحد عشر شخصا.

- ذلك ما رواه لي مارثيلو. قلت في نفسي: أحد عشر؟ في أي حال صار مهبل دنيز !

- أصارحك، لو أزيد نهايتَي أسبوعٍ كهذه، فسوف أشتري سيارة جديدة. وأنت، لا بأس؟

- مرهقة قليلا، ولكني الآن مع الفائز في المسابقة.

- يا للمحظوظ ! ما اسمك؟

- دانيال.

- يا له من فتى لطيف ! قالت وهي تقرص ذقنه.

دنا منها خفية رجل أشيب الشعر كان يسير في الممر وأمسك عجيزتها بكلتا يديه. أطلقت صيحة فزع كاذب: «هل جننت يا بيتو؟» جعل الاشيب يجس مؤخرتها كأنه يزنها، وهو مغمض العينين، وقال وهو في غاية الغبطة: «اللعنة، هذا البلد فعلا عظيم !» ومضيا معا في

الممر بين ضحك وجسّ.

قادت صبرينا دانيال إلى الباب رقم 9 ودخلا وسط عتمة لها رائحة البيوت المغلقة. أضاءت صبرينا بعض المصابيح، وقد لاح أنها تعرف مكان القاطعات. غمر الغرفة غبشٌ مخضر، كشف عن سرير واسع وأرائك وبار. جلست على حافة السرير، فكت شعرها وفتحت مئزرها. رأى نهديها، وعانتها وساقيها المسفّعتين.

«تعال يا كنزي»، قالت صبرينا.

دنا دانيال. أمسكته من وسطه وجعلت تفك أزرار ملابسه. وهي تخلع عنه قميصه وضعت يدها على قلبه.

«ماذا يحدث هنا في الداخل؟ إنه زلزال»، قالت. فكت سروالة وأنزلت سرواله الداخلي. «آه، لقد رفعت الراية بعد؟ هل قمت بالرحلة كلها وأنت هكذا؟

- أحيانا.

- على شرفي؟

- نعم.

- طيب، اذهب لتضع واقيك الصغير».

امتثل دانيال، ولما خرج من بيت الراحة، رآها مستلقية وسط السرير كالنائمة. دنا منها ببطء. بدا جسدها مغمورا بانعكاس ضوء أخضر.

«لا تمكث هناك. تعال فوقي»، -قالت-، فصعد دانيال على السرير. كانت مغمضة العينين. ظل جاثيا أمامها لا يدري هل يقبلها

أو يداعبها أو يلجها. فتحت صبرينا عينيها.

- ماذا تفعل؟ سألت.

- لا أدري ما ينبغي عليّ أن... أفعله... أوه... في البداية.

- أنت بكر؟ - قالت وهي تستند إلى مرفقيها من وقع المفاجأة.

- مع النساء، نعم.

- ما معنى «مع النساء، نعم»؟

- أنا بكر مع النساء، ولكن ليس مع الدجاج والنعاج.

- النعاج؟

- أبناء عمومتي في الريف أرغموني على ذلك.

- يا للفتية القذرين ! وبعد هذا، كيف نتعجب أن يعامل الرجال النساء كما تعامل الحيوانات، ما داموا هم أنفسهم يتصفون كالحيوانات. طيب، لنر يا بكرا مع النساء، تعال إليّ. أنا لا أقوق ولا أبعبع، ولكننا نحن الاثنين سنتوصل إلى شيء ما. تمدد فوقي وناولني قبلة.

تمدد دانيال فوقها وهو لا يدري أين يضع مرفقيه ورجليه كي لا يسحقها. أحس أن صبرينا تفتح فخذيها. كان يركز كل طاقته في القبلة حين أحس أنها، بحركة احترافية ماهرة ساعدته على وضع كل شيء في نصابه، وإذا هو في صبرينا لاف. أراد أن ينظر كي يتأكد من ذلك، ولكنها بدأت تتأوّه وتضمّه إليها. جعل يقوم بالحركات الحوضية المناسبة وهو ينظر إلى أذنها ومنبت شعر قفنِها الأسود. لم يتوصل إلى تبين ما يجري في الأسفل بالضبط ولكنه لم يقل شيئا.

خُيّل إليه أنه يؤدي العملية بطريقة صحيحة، وحاول، وهو تائه في هذا الدوار العاتم، أن يركز على هذا «العرض الأول» لكي لا يفسده. كانت قد أمالت راسها وانخرطت في أنين رتيب كأنها غائبة. شعر دانيال بوشك قدوم فورة اللذة، فاستسلم إلى بعض تشنجات مقتضبة، وفي أوج نشوته بدأت تسعل سعالا تبغيا جافا اختلط بحشرجات كان يطلقها في خجل.

استرخيا. ظل رأسه مخفيا تحت شعرها، حتى قالت له بعد قبلة على خده:

«اذهب لتسحب واقيك. لا تلق به في المرحاض، وإلا فسوف نتعرض للتوبيخ».

ذهب دانيال إلى بيت الراحة. في المرآة، اكتشف وجهه الملتهب. تذكر تهليل عمال الطريق تحت الخيمة. كان منذهلا.

عندما غادر بيت الراحة، لاحظ أن صبرينا غيرت وضعها فانبطحت ونامت تحت اللحف. انسل حذوها، واستعاد خياله في مرآة السقف هذه المرة، كأنه لا يستطيع أن يهرب من نظرته الخائبة. تلك العينان المدورتان اللتان تروزانه تعلمانه بأنه وصل إلى مبتغاه، وضاجع صبرينا لاف، وأنه مرتاح لتخطي الصعوبة، ولكنه كان يقرأ فيهما خيبة مرة. كل تلك الرحلة لأجل هذا؟ الشيء الوحيد الذي أعجبه حقا رؤيتُها وهي تحلّ مئزرها وتفكّ شعرها. الباقي كله بدا له قريبا جدا، ملتحما، دون مسافة؛ هو الذي حلم بأن يرى صبرينا لاف في لانهائية استعراض وضعياتها الشبقة لم ير منها غير الرقبة والأذن، وكأن البقية كانت خارج مجال النظر، مثل مشهد يحلم به شخص ما

طوال حياته ثم لا يكتشف منه عند الوصول سوى عشبة. كل شيء كان مخالفا لما تخيله: كل ما استشعره من المضاجعة ومدتها، أما هي، وقد بدت له أقل طولا وأقل اندفاعا وأكثر شحوبا، فلم ترتدِ ملابس داخلية إباحية ولا غيرت وضعها ثلاث مرات كما في الأفلام، أو صرخت من فرط اللذة، أو طلبت المزيد، وها هي الآن تنام دون أن تعيره لفتة.

نظر إليها. لم تعد صبرينا لاف سوى خصل من شعر جعد أشقر موخوط بالرمادي تنبو عن اللحف. ودون فائض من جهد، تصور دانيال كيف تكون هذه المرأة بلونها الطبيعي واسمها الحقيقي وهي تقصد إلى البقالة بعربتها، وربما صحبة عيال وزوج. ولاّها ظهره. لم يكن لديه رغبة في النوم.

بعد أن اجتر خيبته برهة، لاحظ أن بجانب رأس السرير لوحة أزرار كهربائية؛ ضغط عليها فاكتشف أنها تدير عدة مصابيح ملونة. ثم شع ضوء تلفزيون مُدمَج بالجدار. اضطر أن يخفض الصوت لكي لا يوقظ صبرينا. بدّل القنوات وتوقف عند واحدة كانت تبث فيلما إباحيا تظهر فيه امرأة شقراء وهي تمصّ عضو رجل يحمل نظارة شمسية. في المشهد القريب الذي يليه، عرف دانيال أنها صبرينا لاف، وقال في نفسه «الحقيقية». كانا يمارسان الجنس على المدارج، من خلف ومن أمام وهما يمسكان بالدرابزين ثم تنحني فوقه. وازن دانيال بين هذا وبين أدائه الأخير فأحس بالمهانة.

بعد برهة، تحركت صبرينا في نومها وقد أزعجها ضوء التلفزيون المتقطع.

- ماذا تشاهد؟

- أنتِ، في أحد الأفلام.

- يا للمتعة ولكن بعد ذلك، تطفئ التلفزيون، هه، يا أرنبي؟

-قالت- في وشوشة تعبة، ثم عادت للنوم.

(14)

عندما انتهى الفيلم، أطفأ دانيال التلفزيون والضوء وظل مستلقيا على ظهره في الظلام والصور الأخيرة لا تزال تتراقص في شبكية عينيه. قدر أن الوقت لم يكن متأخرا كثيرا ولكن كان لا بدّ أن يحاول النوم ولو برهة. لم يكن يدري هل سيرغمونه على الانصراف في ساعة محددة أو أنه يمكن أن ينام حتى الفجر.

سعلت صبرينا مرة أخرى، فكان ذلك الصوت الجاف هو وحده الذي له وجود في الظلام. تذكر دانيال الكفيفَ الذي ساعده في وسط المدينة. ماذا يمكن أن يسمع في سعال صبرينا؟ التعب ربما. هل يستطيع أن يعلم إلى أي حد هي جميلة؟ ربما، إذا أمكن له لمسها. تذكر الطريقة التي جسّ بها الرجل الباص كأنه تائه يبحث عن طريقه في بيت خال من النور. تذكر البصمة التي تركها على قذارة الصفيح وهو يبحث عن الركيزة. لم يكن للباص وجود بالنسبة إليه إلا عندما لمسه. تقلب دانيال على جنبه، وبحث بيده عن ظهر صبرينا ولاحظ أنها دفعت اللحف عند قدم السرير. مرّ بيده على ظهرها، ثم كتفها، والزند؛ تباطأ عند استدارة الورك، منزلقا عدة مرات أسفل ظهرها حتى الحزام. ازداد اقترابا، وكله توق لاكتشاف جسد امرأة عارية. استكشف الفخذين ولاحظ بأي كيفية ناعمة تبلغ يدها وركها، كأن

«فخذ» و«ورك» كلمة لينة واحدة، ثم قطع المسافة حتى الكتف والقفا، داعب الشعر، بحث عن النهدين العذبين المخفيين حتى النصف والسجينين تحت الذراعين، أحس حلمتيها بين أنامله، دقات قلبها الهادئة، بطنها، رعشات عانتها. كان يكتشف شيئا فشيئا كيفية جديدة لا تخطر ببال لإدراك صبرينا لاف، ذلك الإحساس الذي لا علاقة له بالنظر، لأن النظر يأتي من داخل الرأس، من خلف الأجفان مثل صور الأحلام، أما اللمس فيبدو أنه يأتي من الخارج، ويجعل هذه المرأة ذات كيان واقعي ككيانه، مع حياة غريبة عن حياته، خارج جسده، مختلفة وهي نائمة هكذا، تحس ربما في عمق النوم بمداعبات دانيال الذي راح الآن يستكشف حرارة كل ناحية من البشرة، نداوة الإليتين المدورتين، فتور القفا، الكيفية التي يقترح من خلالها الصلبُ والرخوُ حضورَ العظم أو اللحم الراضي المرتاح. اشتهاها دانيال باضطرام جديد حرص على لجمه كي لا يوقظها. عاد إلى الاستلقاء على ظهره وضغط بيده الأخرى على أعلى ورك صبرينا كأنه يتأكد هل تزال بجانبه «كما يحس الكفيف الأشياء» قال في نفسه وتذكر السمين كربوني وهو يتنبأ: «سوف تصبح أعمى يا راعم». فتح عينيه ثم أغمضهما لأن النتيجة واحدة. بقي هكذا، مرتاحا، مذهولا لانفتاح عالم بحاله في العدم والظلام، هادئا، منسابا ببطء إلى النوم، غير منبهر تماما بنورانية الوصل.

(15)

خلال لحظة، لم يعد يدري أين هو. صوت الماء ونور الصباح غيّرا الغرفة. رأى جزئيات أخفاها الليل. لوحات بمشاهد غروب ساطعة، نافورة صغيرة من المرمر مع مشخصة رومانية في مشكاة، فهرس لعب إباحية، نباتات من البلاستيك في مزهريات - في إحداها وضعت صبرينا أزهاره. من السرير، وعبر حاجز زجاجي كبير مدور، يلوح الحمام حيث كانت تغسل شعرها. جلس دانيال على السرير ليتأملها. أشارت إليه بأن يأتي للاستحمام معها.

نهض متثاقلا وقد ليّنه النوم، وغاص تحت الدش الساخن. رغّى جسده بالصابون فيما كانت هي منحنية تعصر شعرها فينساب منه الماء في خيط رفيع مثل رفل من الضوء. عندما أتمت، مرتّ بالإسفنجة على كامل جسده، الظهر، الصدر الأسمر المتين الذي لا يزال أملط؛ انحنت وغسلت رجليه ومؤخرته، ورغّت بلطف انتصابه الكسلان، وخصيتيه؛ تركت الماء ينساب قليلا ثم قالت لدانيال أن يغلق الحنفيات، وتحت القطرات الأخيرة الباردة، وكأنها تستعد أن تستطعم ببطء شيئا ما، جعلت عضوه في فمها. استند دانيال إلى جدار الجليز: اللذة والفكرة الوحيدة عما يحدث صعدتا إلى رأسه مثل حركة مدّ ناعمة. عندما بدأ يستثار، وأنفاسه متقطعة،

توقفت وقالت له أن يبقى هنا، وذهبت إلى قدم السرير حيث يمكن أن يراها، أدارت له ظهرها وانحنت شيئا فشيئا مانحة إياه إليتيها الورديتين إلى أن خرّت على ركبتيها فوق البساط. عبر الزجاج المضبب، رآها دانيال تمد يدا إلى بطنها ثم أصابعها إلى ما بين فخذيها وهي تداعب تورد شفرتي فرجها. تركته لحظة هكذا، خلف الزجاج ثم قالت له أن يأتي لولوجها. دنا دانيال وولجها ببطء، كما طلبت منه. واصل نسقه في سكون، وهو يمسك بإليتيها وينظر إلى نفسه وهو يغوص في الفرج الندي، متمتعا باللحم الطافح من النهدين المسحوقين بجسدها المضغوط على السرير، وتلَم الظهر والمنظر الجانبي لصبرينا لاف، عينيها المغمضتين وفمها المفتوح، كأن شفتيها تحرقانها من فرط اللذة. وقبل الانتشاء الأخير، طلبت من دانيال أن يتمدد على السرير فركبت فوقه، متمحورة على عضوه. خلال هذا الركوب البطيء الذي لا يحتمل، وهبته وفرة نهديها. ومع التشنجات الأولى، لم يتوصل دانيال إلا لرؤية خيالهما في السقف كأنها كانت تحلق فوقهما. ثم أغمض عينيه وأحس أنهما يقعان معا في ماء المرآة.

(16)

ظلّا ممددين معا يثرثران وها ينظران إلى خياليهما في مرآة السقف. كان شعر صبرينا منثورا على الوسادة. أما هو فيجاهد كي لا يغطي جسده، لخجله من عريه.

«لم تعد بكرا مع النساء، -قالت له صبرينا-. لا مع النساء ولا الدجاج ولا النعاج. ولكنك لا تزال بكرا مع الفيلة».

ضحك دانيال.

- كل الرجال أبكار مع الفيلة.

- لا أدري. في البرازيل، أثناء الكرنفال، يفعل الناس أي شيء.

- لا توجد فيَلة في البرازيل، - قال دانيال.

- كيف لا توجد فيلة، والحال أن هناك غابة؟ أليست أمازونيا؟

- بلى، ولكن لا توجد فيلة.

- إذا كان ثَمّ غابة، فثَمّ فيلة، - قالت.

- ما العلاقة؟

- كيف «ما العلاقة؟» هذا فتى، حتى البارحة، لم يكن يعرف كيف يغمس بسكويته وها هو اليوم، فجأة، يعرف كل شيء. لنطلب بدل ذلك فطورا. ماذا تتناول؟

- يجب أن ندفع؟

- لا، كل شيء يقع ضمن جائزتك. صبرينا، مع الفطور.

بعد لحظات، كانا جالسين على حافة السرير أمام عربة صغيرة من الهلاليات والقهوة وعصير البرتقال.

- لقد نجوت، -قالت-، فالمنتجون كانوا يريدون أن يظهر الفائز في القرعة في نهاية الحصة الأخيرة؛ بالتالي كان يمكن أن تتتبّعنا الكاميرا ونحن متلاصقان في الممرات حتى باب الغرفة. فتراك البلاد بأسرها في التلفزيون.

- ما الذي جرى؟

- فهموا أن التستر أفضل إذا أرادوا أن يهاتف الناس دون أن يتفطن إليهم أحد. وقد أصابوا في ذلك، لأنه في النهاية جاءت مكالمات عديدة.

- وكسبوا من ذلك كثيرا؟

- كثيرا.

- أنت أيضا.

- لا، دفعوا لي أحسن من ذي قبل نسبيا، ولكنه مبلغ غير ذي قيمة، - قالت صبرينا وهي تملأ فنجانين من القهوة.

- كيف تشعرين بتمثيلك في هذه الأفلام؟

- تتعود.

- ولكن خلال التصوير، تكونين في حالة إثارة؟

- هذا حوار؟ - سألت.

- عفوا.

- أسألك بدوري. أين ولدت؟

- في كوروغوازو. أنتري ريوس.

- وماذا تفعل في كوروغوازو؟

- أنهيت المرحلة الثانوية والآن أعمل في مصنع لتوضيب اللحم.

- وهذه الرحلة، كي تأتي حتى هنا، التي حدثتني عنها البارحة، كيف جرت؟

روى لها دانيال رحلته بإيجاز.

- هل تعلم عائلتك أنك هنا؟

- لا... أوه... نعم، -قال دانيال وهو يحوّل نظره عنها-. هم يظنون أني جئت المدينة زائرا، للسياحة.

- لو كنت مدينة لكان ذلك صحيحا، لأنك البارحة جُبتَني من مكان إلى آخر.

- حسبتك نائمة.

- لا تخجل، لقد أعجبني ذلك، مداعباتك كانت حلوة. لا تستطيع أن تتصور الأفظاظ الذين يأتون أحيانا هنا.

- كيف جئت إلى هذه المهنة؟

- هذا نوع الأسئلة النمطية للزبائن الفضوليين. «كيف جئت إلى هذه المهنة؟»، «ما اسمك الحقيقي؟»، «هل تحسين بالنشوة؟» لي صديقة من أورغواي ابتدعت لها أجوبة لأنها لاحظت ما يرغب فيه الزبائن، وهي حكايات مثيرة للشفقة. اسمها سيندي.

هذا صحيح، لأني رأيت بطاقة هويتها. أنا، قالت لي الحقيقة: تمارس هذه المهنة لأنها مجزية، وما دامت لا تعاف الرجال، فلا مشاكل. ولكن عندما نلقي عليها مثل هذه الأسئلة تجيب أنها تدعى ماريا دو لوس ميلاغروس وأنها جاءت إلى هذه المهنة لأن أباها اغتصبها وهي في سن الثالثة عشرة. قالت إنها جربت الاثنين: الصدق والكذب، وأن الزبائن يفضلون كثيرا حكاية ماريا دو لوس ميلاغروس والطفلة المغتصبة. يبدو أنهم، حين تحكي لهم هذه الحكاية، ينتعظون ويصبحون أكثر لطفا معها».

طُرق الباب. نهضت صبرينا تستجلي الأمر فتناهى إلى سمع دانيال الصوت الغليظ للمنتج بيانكي وهو يقول: «تعرفين أننا سنذهب عند منتصف النهار إلى رانلاغ يا عزيزتي. ستكونين جاهزة؟» أوصدت صبرينا الباب، وأخرجت من خلف البار جرابا كبيرا أزرق سحبت منه مجفف شعر، عدّة تجميل وقنانيَّ مختلفة.

«ماذا ستفعلين في رانلاغ؟

- تصوير. هي فيلا، تلك التي تظهر في بعض الأفلام.

- تلك التي تحتوي على مسبح؟

- نعم. أقيم بلاتوه في الناحية الخلفية وسيتم تصوير فيلم المهمة وصال. عمل سخيف بخدع سينمائية مرتبة، فيما يبدو، من قبل أحد أصدقاء بيانكي. وهو عبارة عن عدة رائدات فضاء يطوّفن من سنوات في الفضاء وهن مطالبات بوصل مركبتهن بمركبة روادٍ هم أيضا في الفضاء منذ سنوات. بيانكي يقول إن مركبتنا ستكون شبيهة بخاتم ومركبة الرجال ستكون في

شكل قضيب اصطناعي ضخم، ولكني لم أر شيئا بعد. في هذه اللحظة، الشيء الوحيد الذي نقوم به هو مضاجعة رواد الفضاء في غرف مليئة بحبيبات ضوئية».

أعادت صبرينا بلّ وجهها وسرّحته بالمجفف أمام مرآة الحمّام، فيما كان دانيال يتطلع إليها. في وضعها ذاك، وهي عارية، ونهداها ناهضان إلى فوق، والجسد كله استدارات، والشعر متموج إلى الخلف من أثر النفخ، بدت أطول مع شيء من الدينامية الهوائية، مثل صورة في مقدمة سفينة. رآها تجلس على السرير وتدهن ساقيها الطويلتين بكريم.

«ما لك ساكت؟

- أنا بصدد تسجيلك في ذاكرتي. لأني لا بدّ أن أذهب في سبيلي ولن أراك بعد اليوم.

- ستراني على الكبل.

- شتّان؛ على الكبل لا تضعين مرهما ولا تتحدثين معي. أنت في الواقع مختلفة.

- أحسن أو أسوأ؟

- أحسن كثيرا، وأجمل وأذكى وألطف.

- هذا الصغير، لو لم يوجد لكان لزاما ابتكاره. ولكن طيب، السنة المقبلة ستكون هناك قرعة أخرى، يمكن أن تجرب حظك.

- لا يمكن أن نفوز مرتين.

- أنا كارافيل، يا عزيزي.
- ما معنى كارافيل؟
- مومس درجة أولى، تطلب مقابلا باهظا.
- ولكنك تمثلين ولك برنامج تلفزيوني، - قال دانيال.
- لذلك أريد أن أكسب ما أكسب. أنا لا أضاجع كل يوم أي شخص. فقط من حين إلى آخر، حينما أجد شخصا مستعدا للدفع.
- كم تطلبين؟
- كثيرا.
- كم؟
- لا يهمّ. أنت ينبغي أن تقابل فتيات في مثل سنّك. أنت شاب وسيم، ولا نذهب للقاء الكرافيلات حين نكون في سنّ... كم عمرك؟
- ثماني عشرة سنة.
- الكرفالات للمسنين، للمتزوجين، قالت وهي تمر بالكريم على فخذيها. توجد فتيات في مثل سنّك لا يطلبن غير المضاجعة، المهم هو أن تمنحهن ثقتك، تهديهن الأزهار. يجب أن تحسن معاملتهن، وتعطيهن اعتبارا، تصارحهن بالحقيقة، ينبغي أن يحسسن أنك لن تحكي كل شيء لأصدقائك».

أزاح دانيال الستائر. من هنا نطل من فوق على مقبرة ريكوليتا، وتعدد الصلبان والقباب تحت سماء ذات غيوم متفرقة. تذكر صوفيا،

ونظريتها عن إيروس والموت وبحث في رأسه عن قشرة جرحه.

«ألا يؤثر فيك وجودك فوق مقبرة؟ - سأل دانيال.

- لا، أنا لا أتأثر. ولكن الذين يطلون من النافذة، تنتابهم أطوار. هو مشهد مثير للشهوة. يخيّل لي أنّهم يُدركون فجأة قصر الحياة وضرورة أن يغنموها. ذات يوم، أراد مخبول أن يجامعني في المقبرة، قال إن هناك ممرات مهجورة، وألا أحد يمكن أن يرانا. فصرفته.

- كان من هواة وطء الموتى.

- من هواة ماذا؟

- وطء الموتى، - قال دانيال.

- من أين جئت بهذا؟

- قرأته في مجلة «بلاي بوي».

- آه ! لذلك أنت على هذا القدر من المعرفة، تقرأ «بلاي بوي».

- فيها مقالات جيدة، -قال دانيال-. منذ مدة قصيرة أحدهم كتب عنك.

- حقاً؟

- «صبرينا لاف، نجمة الإباحية».

- وماذا يقول؟ -سألت صبرينا وهي تمرر إسفنجة صغيرة على وجهها.

- قال إنك عندما تخلعين ثيابك، فأنت تخلعين ثياب كل النساء. لأنك... ماذا قال؟ «لأنك تمجدين كل الجنس الأنثوي»، ذلك

ما قاله.

- هذا منتهى الحمق.

- ألم تقرئيه؟

- قرؤوا لي منه بعض الفقرات. هذا الشخص لا يعرف معنى أن تكون المرأة عارية، محاطة بأناس وأضواء، مع كاميرا على الوجه وأخرى بين الفخذين».

تسلل دانيال خلفها ونظر في المرآة إلى يديه وهما تمسكان نهدي صبرينا فيما كانت، وهي منحنية قليلا، تمر بريشة كبيرة على خديها وجبينها.

- ما هذا؟

- بودرة، كيف أمنع البرنزة من اللمعان.

- في رانلاغ، تعرضين جسدك للشمس عارية النهدين؟

- أجل. كيف عرفت؟

- لأن أثر المايوه لا يظهر على جسدك.

- يا لهذا الطفل الدقيق الملاحظة !

من فوق كتف صبرينا، تابع منبهرا طقس التجمل بعناية.

- وهذا؟

- قليل من المُطَرّي[1] لإبراز الوجنتين. والآن، شيء من الظل للأجفان. ناولني حافظة عدة التجميل.

---

(1) Blush: مسحوق جاف لتطرية الخدين.

- ولكن هذا أزرق، قال دانيال، وهو يرى شيئا فشيئا وجه صبرينا كما عرفه في التلفزيون، مع هيئة أكثر وثوقا وإثارة، هذا الوجه الذي تحفظه قِطعا منفصلة وسط أنابيب التجميل.

مال بجسده على صبرينا دون أن يطلق نهديها، وهو يستحلي طراوة مؤخرتها.

- هذا قلم؟

- أي لاينر[1]. - قالت وهي تفتح عينيها على وسعهما لترسم أطرافهما.

- ألا يؤلمك؟

- كلا.

رآها تقوّس أهدابها بمنتاف خاص، وتبسط شيئا من خضاب الجفون بدقة جرّاح.

- هذا يوسّع عينيك.

- لمثل هذا جُعل. - قالت.

- عيناك نجمان ينيران طريقي...

-... وفي ليلة أغمضتِهما فواقعت التنّوب. أعرفها، - قالت.

تأمّلها وهي تضع أحمر الشفاه لاوية فمها المكتنز.

- ماذا أحسّ خلفي؟ مرة أخرى؟ -قالت وهي ترفع ذراعيها-. هذه عملية سطو؟ خذ ما تريد ولا تؤلمني. لا تطلق النار، من فضلك...

---

(1) Eye-liner: قلم العينين، يستعمل لتخطيط أطراف الجفون.

ضحك دانيال.

- طيب. عليّ الآن أن ألبس-، قالت صبرينا، ودانيال لا يريد أن يتركها، إذ جعل يقبلها في جيدها.

«لا، لا، لا» قالت. وملّصت نفسها منه راكضة نحو حافظتها. «ينبغي أن ألبس ثيابي، وأنت أيضا».

ارتدى دانيال ثيابه على مضض كأن لبس سراويله وجواربه سيعيده إلى وضع الخائف المبتدئ الذي كان عليه البارحة. انتعلت صبرينا حذاء رياضيا ولبست تنورة قصيرة وصدارا خفيفا أبيض من الليكرا.

- تتركين أشياءك هنا؟ - سأل دانيال.

- أترك الجراب الكبير وآخذ الأصغر.

- ولكن أين تسكنين؟

- مرّات هنا، ومرّات في الفيلاّ، ومرّات أخرى في شقتي.

سوّت صبرينا هندامها أمام المرآة.

- هل ستتذكرينني؟ - سأل.

- وأنت، هل ستتذكرني؟ - قالت وهي تنظر إليه عبر المرآة.

- نعم.

- أنا أيضا، - ردّت ثم قبّلته. هيا بنا؟

- هيا بنا.

خرجا إلى الممر، فوقعا على بيانكي.

- آه، الطفل لا يزال هنا، -قال بصوته الغليظ-. أي ليلة قضيت،

هه؟ هل تدرك الحظّ الذي صادفك؟

- نعم، - قال دانيال.

- كل ذكور هذا البلد يتمنون نكاح هذه الدمية.

- مارثيلو... - قالت.

- ماذا هناك؟ -قال بيانكي-. أقولها له حتى يعلم ماذا نزل عليه من السماء؛ لم يدفع شيئا ولم يضطر حتى للظهور في التلفزيون ولا لأي شيء آخر. هل تدرك هذا؟

- نعم، -قال دانيال-. أقرّ بذلك.

- لم لا تأتي معنا إلى الفيلاّ؟ -قال بيانكي-. سنعدّ مشوى وبعدها تشاهدنا ونحن نصور. كل البنات هناك يتجولن عاريات. فردوس حقيقي.

- دعه يا مارثيلو.

- أنت، لا تتدخلي. ألا تريد أن تأتي يا صغير؟ بسيطة. هذا المساء سنطلب لك سيارة.

نظر إليه دانيال. كان بيانكي يبتسم برأسه الكبير الشبيه بضفدع، وعينيه المواربتين ذاتي الاخضرار الباهت. ثم نظر إلى صبرينا فأشارت له بالرفض في هزة رأس خفيفة.

- فرصة كهذه، لن تصادفها كل يوم.

- لا أدري،-قال دانيال-. ما أعرفه أني ينبغي عليّ أن أعود إلى بلدتي.

- ستُحرم من شيء رائع. الشمس، مسبح أولمبي، نهود عارية،

مضاجعة من هنا، مضاجعة من هناك. توجد غرف كثيرة.

- دعه يذهب يا مارثيلو.

- قلت لك لا تتدخلي. لماذا تحشرين نفسك؟

- إنه طفل يا مارثيلو، - قالت صبرينا.

- طفل، إيه، -قال بيانكي-. هذا لا يمنع أنه تسلّقك الليلة، هذا الطفل.

- اذهب يا دانيال. سيجرجرونك بالكلام ويجبرونك على التمثيل في فيلم.

- وأين المشكل؟ ما العيب في هذا، يمكن أن يكسب بعض المال، هذا الولد.

- أودّ ذلك ولكني لا أستطيع. أشكرك على أية حال. - قال دانيال، وهو يبتعد في الممر. التفت إذ سمعهما يتخاصمان. كان بيانكي قد أمسك صبرينا من ذراعها وهو يشتمها. عاد دانيال أدراجه. ما جرى بعد ذلك كان في سرعة فائقة. رمى بيانكي بصبرينا على الأرض، فانحنى دانيال لنجدتها، وإذا ببيانكي يسدد له ركلة على وجهه خرّ إثرها على قفاه. كانت صبرينا تبكي وهي على الأرض، ودانيال لا يجد القوة للنهوض.

«اغرب عن وجهي أيها الطفل القذر !» صاح بيانكي.

«اذهب يا دانيال، وإلا فسيكون الأمر أدهى وأمرّ»، قالت صبرينا.

انصرف دانيال ويده على خدّه، وكأن في مسكه زوال أوجاعه.

في مرآة المصعد رأى وجهه المرتعب وجرحا في قوس حاجبه الأيمن بدأ ينزف. خرج إلى النهج وطعم الدم الفاتر في فمه، مشتت الذهن مبهورا بنور منتصف النهار الفج.

(17)

كان واقفا وسط ضجيج مفترق شارع لاس هيراس وقيظه، مترددا حول السيرة التي سيتبعها: يذهب إلى بيت راميرو، يهاتف أسرته أو يتجه إلى بيت الراحة بإحدى الخمارات كي يغسل وجهه. بدا أن أصوات الزمور وأزيز المحركات تمنعه من سماع قراره. كان يشعر أنه في قلب لولب من سيارات وعمارات تدور بلا نهاية وبصوت هادر. عندما لاحظ أن الناس يرقبونه، اتجه إلى كشك ففك ورقة مالية مقابل قطع نقدية. سأله البائع ما إذا كان في حال جيدة فأجاب أن نعم وأن جرحه ناتج عن اصطدام. أمام الهاتف العمومي، وقعت منه نقوده كلها فانحنى لجمعها. ولما كان الضوء قد أعشاه ولم يعد يرى سوى بعين واحدة، فقد جعل يجمع الدوائر الغامقة التي استطاع رؤيتها، إلى أن أحس أن يديه مبللتان واتضح له أن بعض الدوائر لم تكن قطعا نقدية بل بقع دمه على البلاطة. فزّ قائما ومسح قوس حاجبه بكمّ قميصه. نقر رقم أخيه في كوروغوازو، فلم يجب أحد. قدّر أن أخاه كان يمكن أن يدفع عنه بيانكي، ويكسّر خلقته الضفدعية ولكنه كان بعيدا. تصور الهاتف وهو يرن في سكون منتصف نهار قروي، على طاولة آخر الممر، جنب رايات فرق الكرة

وصورة أبويه المتعانقين ذات شتاء في بارانا. حطّ رأسه على الجهاز وجعل ينشج بالبكاء.

- ما لك؟

التفت دانيال فرأى رجلا ينتظر دوره، وفي يده محفظة وثائق. كفكف دمعه بالكمّ الآخر وقال:

- لا شيء.

- وجهك مشوّه. أرني. -فحص الرجل الجرح-. لا بدّ من غرز. مستشفى ريفادافيا قريب. تعال معي.

استجاب له دانيال. أوقف الرجل باصًا، وساعده على الصعود، ومن الرصيف قال للسائق:

«أعلِم هذا الفتى حين تمر أمام المستشفى، لكي ينزل ويتعالج في قسم الحالات المستعجلة».

لم يلزمه السائق بالدفع: «هو على بعد خطوتين» قال. خلال المسافة القصيرة لاحظ دانيال أن الناس ينظرون إليه، في دهش وتأثر، ولما نزل، عبَر الشارع واتجه إلى قسم الإسعاف.

أمهات جالسات على المقاعد مع أطفال يرنّ صدى بكائهم حتى أعلى الجدران الصفراء. لم يضطر لشرح أي شيء. ما إن رأته إحدى الممرضات الواقفات في القفص البلوري حتى أدخلته من باب ذي مصراعين وقادته عبر رواق إلى غرفة بها سرير للفحص الطبي. «تمدد، سيفحصك الطبيب»، قالت له. سألته عن هويته وعنوانه وتركته برهة وحده.

لمح دانيال خزانة معدنية من جانب وأنبوب أكسجين عاليا. عادت الممرضة وبيدها إناء مملوءً ماء وشاش جراحة، وطلبت منه أن يجلس. غسلت الجرح بعناية وطهّرته. أحس دانيال أن خوفه زال بزوال خثارة الدم. وما كاد يفتح عينه اليمنى حتى نظر إليها. لقد كان لقربه هذ الصباح من امرأة عارية ما يجعله يتصور أنه قادر أن يحدس بسهولة جسدها المتين الوافر تحت البلوزة الخضراء.

- هذا تنظير شعاعي؟ - قالت.

- عفوا؟

- ما دمت تفحصني بالأشعة السينية.

- آه، - قال دانيال.

- بالنسبة إلى شخص مجروح، تبدو لي متقدا حيوية.

- لك مدة وأنت... ممرضة؟

- تسع سنوات.

- كم عمرك؟

- لا نسأل امرأة عن هذا.

دخل طبيب وهو يدندن، حيّى دانيال وفحص جرحه.

- تشاجرت؟ سأل.

- نعم. تلقيت ركلة.

- والآخر، ماذا أصابه؟

- لا شيء.

- في هذه الحالة، لم تتشاجر، بل ضُربت. سنخيط بعض الغرز

كي نغلق هذا.

رآه دانيال يُعدّ الخيوط وإبرة معقوفة مثل شصّ، ثم أحسّ وخزا وجرّا متواترين. أراد أن يخفي وجعه فسأل ليدفع ضنونه:

- ستخلّف لي ندبة؟

- صغيرة، نعم، ولكن لا تهتم فالفتيات يهوين الرجل الموسوم طوال حياته. أليس كذلك يا إيوخينيا؟

تبسمت الممرضة.

جعل الطبيب يغني «يا ندوبا / لا تبرأ من جراح / تركتها الحياة / في معاركها الحزينة..». تناول المقص وقطع الخيوط وهو يقلد صوت غارديل[1]: «على وجهي أيضا / أرسم كبريائي / تذكرة منك / مرسومة من أجل شقائي». أدرك دانيال أن ذكرى رحلته هذه، بفضل هذه الندبة، ستبقى ثابتة أبدا كالوشم، وربما، حينما يصير عجوزا ويُسأل عنها، يجيب إجابة فيها كذب ملفق ويحتفظ بسر ذكرى ليلته مع صبرينا لاف.

-الجريح الأكثر ابتساما في العالم، - قالت الممرضة.

- هو وحده يعرف السبب، -قال الطبيب وهو يضع على قوس حاجبه شاشا ولصقة مشمعة. -حسنا يا ولدي. ها قد تصلّحت. غدا، إن لاحظت أن الجرح جفّ، فلتُزلْ عنه الضمادة ولْتغسلْه بالصابون. أما الغرز فسوف تتلاشى وحدها.

شكرهما دانيال وودعهما، وغادر المستشفى مصمما أن يهاتف أخاه.

---

(1) كارلوس غارديل (1887-1925) أشهر مغنّي تانغو في الأرجنتين.

وفيما هو ينتظر كي يعبر الطريق، لاحظ رجلا ينظر إليه باحتقار. كان يرتدي بدلة حسيرة بالية، وكان شعره قذرا.

- لمَ تضحك؟ - سأله الرجل.

- أنا لا أضحك.

- بلى، تضحك وحدك في الطريق. ألا تعلم أن المشي هكذا وكأن كل شيء على ما يرام ممنوع؟ من تحسب نفسك؟

وأمسك دانيال من ذراعه؛ فتملص الفتى وفر هاربا. بعد بضع مئات من الأمتار توقف أمام كبينة شاغرة. تثبت من أن الرجل لم يتبعه. شكّل رقم أخيه. انتظر بعض رنّات قبل أن يفتح الخط. بصوت نائم، سأله أخوه أين هو ثم راح يوبخه بشدة لأنه لم يهاتفه قبل هذا الوقت. أعلمه أن أخته فيفيانا في أقسى حالات القلق وأنها أرادت أن تخبر الشرطة؛ وأنه من الخطر ترك الجدة وحدها، ولكي يزيلا عنها مخاوفها قالا لها إنه يقيم مع صديق له بكوروغوازو. أضف إلى ذلك أن تقنيّي تلفزيون الكبل اكتشفوا الوصلة المهربة وهددوا برفع قضية. لم يكن دانيال يولي كل ذلك كبير عناية، كان مسرورا بالتحدث إلى أخيه؛ تركه يفرغ جعبته في نبرة المستاء وهو يتابع حركة الشارع: أناس يغادرون السوبر ماركت، كسيح يبيع أقلام حبر جاف عند إشارة المرور، مفسّح كلب يمر، نادل يميل وينثني وسط السيارات حاملا صينية من فناجين القهوة. سأله أخوه ما إذا كان يبيت عند راميرو، فردّ دانيال أن نعم، متذكرا أن أخاه يجهل مثلية صديقه. خطر بباله أن يحكي له التقاءه أثناء رحلته بصديق سائق الشاحنة التي أهلكت أبويه، ولكنه آثر الصمت. سوف يحكيها له من بعد. سأله ما إذا كان

لديه معلومات عن استئناف العمل في المصنع ولم يسمع الردّ جيدا بسبب ضجة أحدثتها فرملة حافلة، ولكنه استطاع أن يفهم ان المياه بدأت تنخفض وأن الشاحنات يمكن أن تعود إلى سيرها المعتاد بداية من الخميس. قال له دانيال إنه سيأتي في الأثناء. سأله أخوه هل لديه ما يكفي لشراء تذكرة الركوب، فأجاب بنعم، وألا داعي أن يشغل باله عليه. ثم ودعه وأقفل الخط. ولكنه عاد لفتحه ثانية، وكاد يكوّن رقما آخر قبل أن يعدل عن فكرته ويتجه مشيا، في أنهج حارقة، نحو حديقة النباتات.

(18)

ابتعد الأرنب في نطّات قصيرة وجلة، وكان على الطفل أن يلحق به لكي لا تدوسه الأرجل. دعته أمه إلى إعادته إلى صندوق الأحذية، إلا أنه كان يمسكه بين ذراعيه ثم يطلقه. في الرواق الكبير لمحطة الحافلات، كان دانيال يرقبهما وهو جالس قبالتهما، في انتظار وصول حافلته إلى موقفها. أما الساعة فتشير إلى الحادية عشرة صباحا. حسب أن وصوله إلى كوروغوازو سيكون قبل هبوط الليل، وتخيل نفسه في اليوم الموالي وهو يسجل الأرقام في المصنع وسط الجو الخانق والشاحنات وعدد الدجاج الهستيري. سوف يقطع دفعة واحدة المسافة التي قضى يومين ومعاناة كبرى لاجتيازها. فكر في الأشخاص الذين صادفهم خلال رحلته وتصورهم في صف طويل الواحد تلو الآخر على طريقة الهنود الحمر، وكأنه يراهم في وضع مخالف لظهورهم: غالياردي وكلبه، العامل المدفون تحت الرمل، تورو رينوزو وابنه، بائعة البطيخ الصيفي العجوز وهي تشاهد التفلزيون، الجنديان، المعلمات، الصورة على هيكل يانينا، فكتور سائق الشاحنة، إيطاليّ الطوف، الرجل وعربة السولكي. تذكر فرناندو والحجر الذي لم يشأ رميه على النافذة؛ تساءل كيف سيشرح

له أنه اختار أن يسافر بمفرده، وأنه كان يريد أن تكون هذه المغامرة صامتة، وأنه لم يشأ أن يشاطره أحد خوفه وشكوكه. تساءل أيضا هل سيحدثه عن بداياته العاطفية. لن يصدق مغامرته مع صبرينا لاف أحد. لا يهم، كل شيء محفور في ذاكرته، موشوم على حاجبه الأيمن. تلمس ضمادته، لم يفكّر في إزالتها. كان يريد أن يراه الناس مقبلا هكذا، مجروحا حنّكته التجربة وكيلومترات سفرته. تساءل ما إذا كانت بسمته ستدوم حتى كوروغوازو. تذكر المجنون الذي صادفه في الطريق فقال له ألا حق له في الابتسام. صوفيا فهمت أن شيئا حصل. بعد أن اتصل بأخيه، قصد بيتها ودق جرس الهاتف الداخلي.

- نعم.

- صوفيا، أنا دانيال.

- آه !

- هل يمكن أن أصعد؟

- إن أردت.

- نعم، أريد. ولكن قبل ذلك، ينبغي أن أذهب لشراء حاجة.

- لا، لا تذهب، لن نفعل أي شيء.

- ماذا تعنين؟

- لا تشترِ شيئا. لن نستعمله. لن يقع أي شيء.

- ماذا تظنين أني سأشتري؟

- تعرف ذلك جيدا.

- أردت أن أشتري لك أزهارا.

- أكره الأزهار، اصعد.

عندما وصل إلى فوق وفتحت له الباب ورأت ضمادته، أدرك دانيال أنه لم يفكر في كذبة يمكن أن تفسر إخلاله الموعد.

- لقد هشمت زجاجة على رأسي لكي تعالجيني ونستأنف الأمور حيث تركناها في اليوم الفائت.

- هكذا؟

- نعم، ولكني بالغت فاضطررت أن أذهب إلى المستشفى.

- هيا، بجد، ماذا جرى؟

- رجل ركلني.

- لو تواصل هكذا فسوف تضطر إلى الخروج بخوذة على رأسك. لهذا لم تأت في الموعد مساء أمس؟

- طبعا.

- أقول لك صراحة إني كرهتك وإني فكرت هذا الصباح أن عدم مجيئك فرصة سعيدة، وإننا لا نعرف بعضنا بعضا.

- بلى، نعرف، - قال دانيال.

- كلا. تريد أن نتأكد؟

- ما أشتغل؟

- لا أدري. ماذا تشتغلين؟

- سكرتيرة في عيادة طبيب.

- ولماذا أنت في بيتك الآن؟

- لا يستقبل المرضى يوم الثلاثاء. نواصل. ما هو لقبي.
- لا أدري.
- برموديث.
- صوفيا برموديث، أعاد دانيال وهو يتأملها. كانت ترتدي جينز وصدرة حمّالين بيضاء، وقد خلعت نعليها وبللت شعرها.
- شيء آخر: أين تعرفت على راميرو؟ - واصلت.
- لا أدري.
- أرأيت أنك لا تعرف شيئا؟ أنخيل، صديقي، كان يتابع معي نفس دروس المسرح.
- طيب، الآن، اكتمل النصاب. صرنا نعرف بعضنا بعضا، قال دانيال وهو يركز نظره في عينيها.
- شيء ما حصل لك، -لاحظَت-. نظرتُك تغيرت.

راح دانيال يضحك. يقع الآن الإعلان عن انطلاق الحافلة القاصدة كوروغوازو. حمل جرابه واتجه إلى الموقف 27 مارا أمام كشك جرائد، متجنبا حزم أناس بدؤوا يذهبون للعطلة وحقائبهم. وفيما هو ينتظر وضع جرابه في مخزن الأمتعة، رأى رجلا وامرأة يتعانقان وهما يتبادلان تحية الوداع.

- هل لك خليلة ؟ - سألته صوفيا.
- لا، أجاب. وأنت، هل كان لك خليل؟

- بجدّ، مرة واحدة.

- ولماذا قطعت علاقتك به؟

- لأننا كنا مختلفيْن كثيرا. كان يكتب لي أشعارا سخيفة حول التحام الأرواح؛ كان يحسب الحب شيئا روحيا.

- وما العيب في ذلك؟

- ليست القضية أن يكون ذلك عيبا. أنا أعتقد أن الحب لا علاقة له بالروح أو الفكر، ما يهم هو اتصال الأجساد لا الأرواح.

- أهذا كل ما تذكرين عن خليلك السابق، أنه يكتب لك أشعارا سخيفة؟ ألا تذكرين شيئا جميلا؟

- بلى، شيئا واحدا، ولكنه حماقة.

- ما هو؟

- كان كلما جاء في طلبي، عند خروجي من المعهد - وأنا في السنة الخامسة، نمرّ من ميدان مايو، تعرف أين يقع؟

- نعم، ذهبت إليه أمس.

- تصور، عند مروره من نهج ريفادافيا الذي يحاذي الميدان، يقوم بما لا أدري ماذا بواسطة دواسة البنزين، يصدر عنه انفجار في ماسورة المنفس أشبه بطلقة نارية، تفزع حمام الميدان فيطير مكونا غمامة رمادية، فيما يهتز حرس الكاتدرائية كأنه أيقظهم من سبات. كان يعشق ذلك وينفجر ضحكا وهو يرى طيران الحمام.

- أنت أطرش يا صاح؟ -قال حامل الأمتعة.

- ماذا؟

- قلت إن جرابك يمكن أن تضعه في الداخل، على حاملة الأمتعة.

ركب الحافلة. كان مقعده على يمين الممر، قرب النافذة. مقاعد كثيرة شاغرة فالناس لا يذهبون إلى كوروغوازو إلا لاحقا، وقت الكرنفال. وضع دانيال يده على المقعد المجاور، حيث لا يوجد أحد.

«إن لم تبادر بغسل بقع الدم هذه، فلن تستطيع إزالتها من بعد. اخلع قميصك، سأنقعه في الماء. لمَ تنظر إليّ هكذا؟

- أخلعُه؟

- نعم، ما الأمر؟

- تتذكرين ذلك اليوم، قبل أن تأتي أختك؟

- أنت لا تفكر إلا في هذا.

- ما رأيك لو نواصل الآن، مع لعبة الحمالتين...

- لا، لا، لا. ذاك كان أول أمس. اليوم أفضل أن نبقى صديقين، يمكن أن نتحدث، نستمع للموسيقى..».

كان دانيال قد ازداد اقترابا وهو يخلع قميصه.

-دانيال، الزم مكانك.

- ألم تطلبي مني خلع قميصي؟

- أجل، ولكن ابق في مكانك، -قالت له صوفيا، ثم انفجرت ضحكا وفرت لكي يلاحقها.

انطلقت الحافلة في موعدها المحدد. تقهقرت، توقفت في فرملة كالأنين ثم مضت قدُما نحو المساحة المعبدة. كان النهار مشمسا، خاليا من السحب. لاحظ دانيال أنهم يمرون بجوار حي قصديري، وعن بعد مخازن تتكدس فيها الحاويات.

كانت قد ركضت حتى غرفتها. تبادلا المزح والهراش على السرير وهما يضحكان. ثم جلست فوقه، كأنها غلبته.

- غدا، ينبغي أن أعود إلى كوروغوازو.

- لا يهم. ذلك غدا.

- هل ستعود أختك؟

- لا. ذهبت لقضاء بضعة أيام في لنكولن.

- بجدّ؟

- نعم- قالت وهي تنزل إحدى حمالتي صدرتها.

- لا أحد غيرها لديه المفتاح؟

- لا أحد.

- واثقة؟

- كل الثقة، - قالت باسمة- وأنزلت الحمالة الأخرى.

كانت تضوع من صوفيا رائحة النظافة وذلك الطِّيب اللذيذ الذي يكشف ألفة البشرة مع الصابون والإسفنج.

«ها أنت تبالغ في السكوت»، قالت وهي ترمقه فيما هو يركز نظره عليها. كانا قد تعريا باضطراب وهما يتخبطان مع سلسلة فتحة

السروال ومشبك الحزام والأزرار. طوق وسطها بذراعه ووضع يده الأخرى تحت رأسها. بدا أنها لا تريد أن تبقى عيناها الخضراوتان مغمضتين، فكانت تفتحهما من حين إلى آخر. ضاجعته وهي تمسك بمؤخرته من حين لآخر لتضمه إليها لاهثة برقة في أذنه.

الحافلة تسير الآن عبر أنهج جانبية، وتمرّ أمام عنابر قديمة لجيش البرّ. شاهد دانيال رافعات الميناء وقد بدت خلف الأشجار مثل هياكل عظمية ضخمة لدينصورات.

نظر إليها وهي تنام على بطنها، ناشرا سمعه للضجيج الذي يملأ فضاء ما بعد الزوال: السيارات إذ تنطلق عند إشارة الضوء الأخضر، الأزيز إذ يعلو وهو يقترب ثم يبتعد مثل ذكرى، ضربات بناء رتيبة، منشار كهربائي يصرّ مثل جدجد كبير، التزمير النافذ والمتقطع، صوت مقتضب لدراجة نارية، صفارة إنذار، جميع نشاط يوم عمل يتعالى مثل بنية هندسية سمعية. قبة لا مرئية ينام تحتها كأن صخب العالم خلف جفونها وحاجبيها وجسدها الممدد في ضوء ديسمبر اللامع على تلم ظهرها ليس سوى غطيط نومها.

انعطفت الحافلة في شارع كوستانيرا باتجاه الشمال. أبصر دانيال ريو دي لا بلاتا، وماءه الكدر على مرمى البصر؛ قال في نفسه إنه نسي النهر، جاب المدينة دون أن يخطر بباله أن لها ضفة. لعل هذا الماء هو نفسه الذي، بدفعِه الطوفَ، ساعده على الوصول إلى بوينس آيرس. أدرك أن رحلة الإياب تعادل صعود النهر. الآن وقد تراجعت المياه،

لا شك أن المنظر الطبيعي سيكون بعد الفيضانات كأنه ميت. الأرض إسفنجية كريهة الرائحة، الأشجار مليئة بأشياء علقت بأغصانها، أشياء حملها التيار، غسيل، ألواح، جذوع، نتف أعشاب يابسة، ارتداد قضبان الأسل والبونتيديراس وهو يغطي ذلك كله، متسللا عبر الزوايا، وحجرات الملابس على الشاطئ، ومسبح النادي، مع الضفادع الملونة، وحيّات الشمال السامة.

نظر برهة إلى صوفيا وهي نائمة، ثم نام بدوره. عندما غير وضعه أثناء النوم، رأى عبر نافذة غرفة صوفيا أن السماء اصطبغت بضياء محمر، وعندما صحا بعدها بدا كلّ شيء كان مظلما.

كانا قد طلبا أكلة صينية.

- ليس بها غير الخضر؟

- نعم -قالت صوفيا- ذلك ما يأكله الصينيون وهم يعيشون أكثر من مائة عام.

سكت دانيال.

- ماذا هناك؟ لا تحب هذا؟

- بلى، بلى. ولكن لأول مرة، خطر ببالي أنني أرغب في أن أعيش طويلا.

- أنا أفكر دائما أني أرغب في العيش سنين طويلة جدا.

- أما أنا فلا. خطر هذا ببالي في هذه اللحظة؛ عندما حدثتِني عن الصينيين، نتأت في ذهني رغبة العيش أكثر من مائة عام. لا أدري

لماذا، فمن قبل، لم أكن أتصور إطلاقا أني يمكن أن أموت...

- ذلك ما نحس به بعد ممارسة الجنس. ألم يسبق لك أن ضاجعت امرأة؟

- لماذا؟ لم أُجِد العملية؟

- بلى.

- وتلك الصيحات الخفيفة، هل كانت...

- أجل، كانت...

- نشوة الجماع.

- بالضبط.

- لم أشهد البتّة نشوة بطريقة مباشرة.

- البتّة؟ متى جامعت لأول مرة؟

- احكي أنتِ أولا عن مرّتكِ الأولى، وسأحكي لك عن مرّتي.

- طيب. كنت في الخامسة عشرة وكان ذلك مع صديق أختي، على المقعد الخلفي لسيارته.

- أي سيارة؟ هذا مهم.

- لماذا؟

- في كوروغوازو يقال إن ثَمّ فرقا بين أن تمارس الجنس في شفرليت تسمح بجملة من الحركات البهلوانية، وبين أن تمارسه في فيات 600 حيث الضيق.

- يا لأهل كوروغوازو، كم يعرفون من أشياء.

- أخي وأصدقاؤه لا يتحدثون سوى عن هذا طوال اليوم،

يأخذون الفتيات إلى باسو دي خيمي، شاطئ في الجهة.
- وأنت، ألا تذهب؟
- بلى، ولكن للصيد.

لاحظ دانيال أن السائق شغّل المكيف. فكر في سحب سترته من الجراب، ولكنه كان مرهقا. فقد ظلّ وصوفيا كامل الليل يقظين إلى أن حانت ساعة الرجوع إلى بيت راميرو. عند طلوع الفجر، ركب المصعد وكأنه ينزل نهائيا إلى عالم بلا نساء، بلا صوفيا، بلا صبرينا لاف، وهو يقول في نفسه إنه عائد إلى القيظ المظلم لغرفته القروية، وصور الجدار ونباح الكلاب البعيدة وسط الليل. «إذا تعلقت بالنساء حد التصاقهن بجلدك ضعت» قال غالياردي؛ تذكر سائق التاكسي الذي فار فائره وراح يشتم المرأة في الشارع.

أبصر المطار، والعنابر، ومجموعة من الطائرات القديمة الثابتة تحت الشمس.

- يمكن أن نذهب بضعة أيام إلى البحر. نقصدها عبر النقل الإيقافي وننصب خيمة على الكثبان -قالت في غبش الفجر الرمادي- أعرف شاطئا خاليا تقريبا يسمى «النوارس». هل بوسعنا أنّ تأخذ إجازة ببضعة أيام في النصف الأول من شهر فبراير؟
- أعتقد أن ذلك ممكن، - أجاب.
- أنتظرك هنا، وحالما تصل، نذهب إليه.

أسند دانيال رأسه إلى النافذة. بينما الحافلة تزيد من سرعتها بعد أن تخلصت من أضواء المرور. لا بدّ أن ينتظر حتى شهر فبراير كي يلقاها. قد يحاول القدوم هذا العام لدراسة الطب، وقد يقيم في بنسيون عائلي ويعمل نصف الوقت... كانت الأشجار ومتراس النهر وأضواؤه تتتالى.

- في النهاية لم تحدثني كيف جرت الأمور في مرتك الأولى.

- آه...

- كيف كانت؟ هل تذكر؟

- نعم، جيدا.

- إيه؟...

- كان ذلك مع... ممثلة بورنو.

- ماذا؟ وصوّروك؟

- لا. قضينا ليلة معا.

- كم دفعت؟

- لا شيء. ربحت في نوع من المسابقة بمكالمة الرقم 0600.

- بجدّ؟ متى كان ذلك؟

- أوه... من زمن قريب.

- هي من نوع البنات التي يصورون منها كل شيء بالعدسة المكبرة، مثل شريط وثائقي لسكان الكواكب الأخرى حول تكاثر البشر؟

- نعم.
- ما اسمها؟
- صبرينا.
- وما الذي فعلت لك؟
- هذا حوار؟

كان في الحافلة تلفزيون يفترض أن يبث أفلاما سينمائية. قدّر أنهم لا يشغلونه إلا في الرحلات الليلية. وكانت المقاعد والوجوه تنعكس على الشاشة المطفأة. لكي يبحث عن وجهه، جعل يتأرجح يمنة ويسرة إلى أن أبصر خياله الرمادي، كشبح تقريبا، على زجاج الشاشة البعيد. مضوا في الطريق السريعة، وتضاءلت البيوت شيئا فشيئا وأغمض دانيال عينيه لينام برهة.

ألف ـ راء

| علامات في الرواية العالمية |
| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |

لاعب الشطرنج

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

كيف السبيل إلى الإحاطة بعمل روائيّ صغير إلى هذا الحدّ يكاد يشفّ لبساطته ووضوحه وكلّ ما فيه يشدّنا إلى متاهة وسمها الكاتب عمدًا بـ «رقعة الشطرنج»؟ وأيّ مدخل قد يسعفنا في استكناه خبايا أبطاله والكلّ لاعبٌ والكلّ مشاهِدٌ في نفس الوقت؟

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي

السنة المفقودة

المؤلّف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطروننني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

شحّاذو المعجزات

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: وحيدة بن حمادو

حين تنتهي من هذه الرواية لن تفكّر في شيء غير تحسّس كلّ الأماكن الموجعة فيك، تحسّس ما كان مخدّرا واستيقظ فجأة ليذكّرك بما سُلب منك باسم التقدّم والرقيّ والحداثة.. إنّها رواية تشييع الإنسان إلى مثواه الأخير بعد أن تغلّقت في وجهه كل أبواب الخلاص وصار نهبا لرياح الإيديولوجيا والتصنيفات القاتلة. رواية لا تقلّ خطورةً عن «الساعة الخامسة والعشرون» العمل الأشهر لقسطنطين جيورجيو، تضعنا وجهًا لوجه أمام الفكر الشرس الطاعن في القسوة والمغالي في اضطهاد الفرد. ما الّذي يدفع السُّود في هذه الرواية إلى تسوّل المعجزات؟

«السود عاجزون عن الإيمان بأيّ شيء. ولكنهم بشر ويجب أن يؤمنوا بشيء ما. ومن بين الأشياء المرئيّة كلّها لا وجود لما يستحقّ ثقتهم. لذلك ينتظرون المعجزات. هم لا يؤمنون بالمعجزات لأنهم سذّج أو أغبياء. بل لأنهم يائسون. ولارجاء لهم في غيرها».

رواية ترسم لنا رحلة العودة إلى الإنسان الذي تركناه وحيدا ضائعا، حاملا تابوته في بداية الطريق.

شوقي العنيزي

البُنيّة والسيجارة

المؤلّف: بونوا ديتيرتر
البلد: فرنسا
ترجمة: زهير بوحولي

بسخرية حادّة يرسم الروائي الفرنسي بونوا دي تيرتر عالمًا يعجّ بالمفارقات ويدين كلّ التصوّرات الشموليّة التي جاءت باسم خلاص الإنسان فقادته إلى مثواه.

«البنيّة والسيجارة» علامة من علامات أدب الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة) في القرن الحادي والعشرين، ولكنّها دستوبيا ساخرة تُعرّي بخفّة تهافت عالم من المُثل والأحلام والقيم حتّى تغدو الخفّةُ صنوًا للثقل ويصبح الكائن لا يُحتمل.

رواية نُشرت سنة 2005 ومع ذلك فقد بلغت حدّ التنبّؤ العام والتفصيلي أحيانا بما سيحدث في سورية مثلا في السنوات الأولى من العشرية الثانية إذ يصوّر الكاتب مشاهد لهو الإرهابيين السينمائي بضحاياهم مسجّلا سبقا سرديا وحدسيا لما سيشاهده العالم بأسره بعد ذلك على شاشات التلفاز.

تنقذ سيجارةٌ حياةَ محكوم عليه بالإعدام فيخرج من غياهب السجن إلى ساحات المجد والشهرة بدعم من لوبيات صناعة التبغ، وتقلب سيجارة حياة موظّف رأسا على عقب فيتهاوى إلى الدرك الأسفل. وبين هذا وذاك رسائل عديدة يبعث بها الكاتب: إدانةُ النفاق الاجتماعي إذ يكرّس شعارات «العناية بالطفولة» محلّ «الأفكار الشمولية». والدعوةُ إلى الاهتمام بأنموذج بشريّ كاد يلفّه النسيان: الرجل الكهل المنتج، تتغذى الإنسانية من لحم كتفيه ولا يغنم غير الإهمال.

بذلة الغوص والفراشة

المؤلّف: جون دومينيك بوبي
البلد: فرنسا
ترجمة: شوقي برنوصي

(كُتبت هذه الرواية برمش العين اليسرى)

من حيث ينتهي المُتاح، يبدأ الإبداع، والأنفس الحرّة وإن غدت جثثًا، قادرةٌ على الطيران.

درسان عميقان من رواية لم تكلّف نفسها عناء الوعظ والإرشاد، فكلّ ما فعله الكاتب أن أصرّ على الحياة، ولمثل تلك المهمّة يكفي أنف ورئة للتنفّس، وبلعوم لتلقّي الغذاء، ورمش عين يُسرى لباقي الأدوار! نعم برمش العين ذاك أبقى جون دومينيك بوبي على صلته بالعالم كاملةً مُبتكرًا طريقةً في التواصل هي الترجمة الحيّة لكلمة «إرادة» أمّا مضمون السرد فذهاب وإياب بين أمسٍ قادرٍ وحاضرٍ كسيح، وبين خارج يُرى، وداخلٍ يَرَى، ولا رابط بين فصلٍ وآخر، أو حكاية وأخرى سوى أنّ كُلاً منها قد شغلت حيّزاً من الذاكرة والوجدان، فعند الفقد لا يبقى من فرق بين التافه والمهمّ، لكلٍّ من الاشتهاء نصيب. والرواية ككلّ الأعمال الكُبرى نبش في أسئلة الماهية وثنائيّة الجوهر والعَرَض، حتى وإن توسّلت بالفكاهة القاتمة بل لعلّها ما أفلحت إلّا لذلك، أوَليست روح الكاتب الخُلّبُ هي المعادل الموضوعي للفكاهة وخفّتها الأشبه بالفراشة، وَجسدُه المأزق هو بذلة غوصه الضاغطة والقتامة لونُها واقعاً ومجازاً؟

رمزي بن رحومة

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

ليلة مع صابرينا

بيدرو ميرال

إنها روايةٌ عن الأنبوب الزمني الذي ينزلق فيه جسد الفتى نحو بُعدٍ آخر من العالم فيه يتحوّل إلى رجُل، تترُك الحياة عليه علاماتها وندوبها. فجسده الذي قاده إلى الجهة الأخرى من الشاشة، تلك الجهة الغامضة على الناس أجمعين، قد أنضج ذهنه ووهبه رؤية العالم الكامن خلف أجهزة الرسيفر، حيثُ يُشكّل رغباته وأحلامه؛ يوجد أناسٌ هناك قد سحنتهم الحياة سحنًا فصارت المتعة والحُب استعراضًا تمثيليًّا أمام الكاميرات وحسب، ما إن يُعلِن المخرج انتهاء التصوير حتى يغرق عالمهم في رمادٍ كثيف ويعلو الزّيف والادّعاء مثل فضيحةٍ ناصعة. وترى الفراغ، تراه في أعينهم مثل بابٍ مفتوحٍ على الأبديّة. أمّا المُشاهد الذي يَخفى عليه هذا المشهد الأخير، فإنه يبقى في غفلته الكبيرة، تلك الغفلة التي رفض دانيال أن يحيى في إهابها.

إنّ الشاشات تدّعي ألوانها.. لا تُصدّقها أبدًا، ولا تشِخ أمامها.

أحمد العلي

ISBN: 978-9938-833-91-1